اللغة والحضارة

للدكتور محمد بديع شريف

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - إسهام اللغة العربية فى أصول الثقافة ومفاهيمها وإثراء الفكر فى التعبير ، لبناء الحضارة ، قبل التاريخ وبعده .

٢ - العرب منحوا العالمَ الأبجدية العربية : أجلَّ نعمة فى الوجود الإنسانى .

٣ - كُتِبَ هذا البحث بمناسبة مفتتح القرن الرابع عشر الهجرى .

مفهوم الثقافة فى اللغة العربية :

ينبسط على العلوم والآداب والفنون ، التى يطلب فهمها والحذق فيها وعلى هذا يقال : ثقف فلان العلم والصناعة ثقفاً حذقها فهو ثقيف ، ويقال تثقف : أى تعلم وتهذب ، وفلان تثقف على فلان . وتثقف فى مدرسة كذا ، أى تخرج فيها ، فالثقافة جماع عناصر الحضارة فى العلم والصناعة ، والمهارة والتهذيب : تجمع فى مفهومها سلامة الجسم وسلامة العقل ، بين الاتباع والإبداع ، بين الخَلْقِ والخُلُق [1] .

ومن منطلق مفهوم هذه الكلمة الجامعة للمعانى ، ألتى تنير المجتمع الانسانى ، أعود إلى مغارس أصول اللغة فى حضن الأمة العربية ، باسطاً صحائف تاريخها الثقافى بما قدمته للحضارة الإنسانية فى عصورها التالدة والطارفة ، موجزاً القول ، مقتصراً على المعالم البارزة متجنباً ما حدث من حروب وغزوات متوخياً حسب الاستطاعة ذكر عوامل التكوين والبناء الحضارى .

قال علماء التأريخ بما وصل إليهم من الأخبار ، وتخلت عنه بطون الأرض فى الآثار : « إن الطبيعة تنكرت فى حقبة من الزمن للأمة العربية فى شبه جزيرتها ، فرمتها بريح عاتية ، هدمت سدودها ، ودمرت معالم حضارتها ، ثم أعقبها جفاف رماها بقحط أهلك الزرع والضرع ، فاضطر أقوامها إلى الهجرة والارتحال، طلباً للماء والعشب والعيش

(١) بفتح الخاء وسكون اللام فى الأول وضمهما فى الثانى .

فأخذت موجات قبائلها تتدفق على الهلال الخصيب إلى سهُول الرافدين ومشارف الشام وشواطىء الأبيض المتوسط وشواطىء النيل .

ويتفق المؤرخون فى حدود ظنهم ، على أن هذه الهجرات قد تكون بدأت فى الألف الخامسة أو فى مفتتح الألف الرابعة قبل الميلاد وقد تكون أول موجة من القبائل العربية هى الموجة التى نزلت على السومريين ذوى الحضارة الرفيعة المزدهرة فى جنوبى العراق ثم ارتفعت هذه الموجة صعداً إلى أواسط الفرات، وهناك أقامت مدينة أسمتها،(أِكّدْ) ، وهى كلمة عربية خالصة ، تؤدى معنى الإحكام والاستقرار يقال أكّدَ الشيئِ تأكيداً وثّقه وأحكمه فأقره ، ومنها أخذت القبيلة اسمها ولقبها فهم الأكديون والرجل منهم أكّدىّ والمرأة أكدية .

ونزل العموريون أبناء عمهم أعالى الفرات والأقسام الشمالية من بلاد الشام وانتشروا فى أواسط سورية وأعالى لبنان ، وامتدوا إلى جنوب فلسطين وأسسوا فى وطنهم الجديد دولة (عمورد) أو (مارتو) باللغة السومرية واتخذوا من مدينة مارى ، عاصمة لهم - قرب (أبو كمال) المدينة السورية الواقعة على الحدود بين العراق وسورية وتعرف اليوم بـ (تل الحريرى) .

ونزل الكنعانيون الذين يرتبطون بالعموريين بصلة القرابة أرض سورية الكبرى ، واستوطنوا معظم أرض فلسطين وفى سفوح جبال لبنان وأنشأوا مجموعة من المدن أطلق عليها اليونانيون اسم فينيقيا (PHDINIX) والذين ارتحلوا إلى شواطىء النيل ، قال عنهم المؤرخون ، إنهم انتقلوا فى حدود الألف الرابعة قبل الميلاد ، جاءوا من ناحية السويس ، عبر سيناء أو من جنوبىّ الجزيرة عبر مضيق باب المندب ، جاءوا ومعهم أصول حضارة ، جاءوا بفن التحنيط وبالكتابة الهيروغليفية والوثنية العربية .

قلنا : إن الأكديين كانوا أسبق القبائل العربية هجرة إلى وادى الرافدين ، حطوا رجالهم على الضفة اليمنى من نهر الفرات متجاورين مع السومريين الذين كانوا ينعمون بحضارة ممتازة ، فاختلط الشعبان وتزاوجت ثقافتان : الأكديون ، بما جاءوا به من جزيرتهم والسومريون بما كانوا ينعمون به من تقدم وازدهار فاندفع الأكديون بما لهم من مهارة فقصروا آماد الدهر ، واستقبل عصرهم منهم

خَلقاً وإبداعاً ، فكان أبرع ما جاءت به علوم فى الهندسة : تخطيط رِىّ متقن فى إقامة السدود وحفر القنوات وخزن المياه لإرواء الأرض وبناء المدن ، ثم عمدوا إلى افتتاح المدارس ونشر التعليم والتأكيد على إتقان القراءة والكتابة واعتبارهما مفتاح الحضارة . لقد فكر هذا الشعب بقوى الطبيعة فى خلق السموات والأرض وتعاقب الفصول واختلاف الليل والنهار ومشاهد الطبيعة فى جبالها وسهولها وأنهارها وبحارها فى جفافها وخصبها فاندفعوا فى سبر أسرارها حتى تمكنوا منها واتصلوا بها خلقاً وإيجاداً فعبدوا قواها ، وثبّتوا أصنامهم فى معابدهم بما يرمز إليها فى عبادة قوة النمو والتوالد تلك العقيدة التى تركت آثاراً تَعَبُّديّة فى عقائد كثير من الأمم . والطبيعة وحدها معلّم ماهر ، خصائِصُها تكشف عن أسرارها وتمد الدارس المتفحص فيها بالحقائق ، وتجهزه بالخيال ، فتنطبع المحسوسات فى ذهنه ، وتتفاعل الأفكار وتلمع الفكرة الناضجة ، فيعوزها التعبير ، فإذا كانت أداة التعبير محددة واضحة أبرزت المعانى الصحيحة ، وفى تجمع المعانى وضمّ بعضها إلى بعض يكتمل الموضوع بفكر ناضج

وهنا موطن الإبداع والابتكار ، وهنا يكمن الجذع الحضارى الذى ينمو ويتفرع ويورف ظلاله ، وإلى هذا يعود سبب الاهتمام بالقراءة والكتابة .

لهذا عمد الأكديون إلى إخوانهم السومريين، فأخذوا عنهم الكتابة المسمارية وفتحوا بها المدارس باللغة الأكدية على طراز لا يبتعدُ عن أحداث ما فى يومنا هذا ، فقد جهزوا الطلاب بقوائم مفردات اللغة ، وبالمعاجم ، وشروح اللغة ، وهُيئت لهم مقاعد الفصل وقاعات الدرس ، وصارت اللغة الأكديّة لغة التثقيف واللغة الرسمية فى العراق ، وفى الأقطار التى خضعت للحكم الأكدى ، فدخلها الكنعانيون والعموريون والبابليون وتعلموا بها ، واستمرت لغة التخاطب والتدوين فى العهد البابلى القديم والعهد البابلى الأخير ، حتى زاحمتها اللغة الآرامية فى القرن السابع قبل الميلاد .

فلما انبسط رواق الحضارة الأكدية فى العلوم والآداب والصناعة وقويت شوكتهم اندفع سرجون الأول الأكدى (٢٣٧١ - ٢٣١٦) فبسط سلطانه على معظم الهلال الخصيب وقسم من آسيا الصغرى ، ووصلت

سيطرته على قبائل زاغروس كما أتم الاستيلاء على جميع الدويلات الصغيرة فى جنوبى العراق ، وضم عيلامَ إلى امبراطوريته ، وبنى اسطولاً ضخماً أخذ يمخر عباب الخليج العربى وبحر العرب وخليج عمان والبحر الأحمر ، واتخذ من شط العرب بحيرة عربية ، وقسّم عيلام إلى محافظات وأنشأ على الضفة اليمنى من الخليج محافظة خاصة به يقيم بها أحياناً ويتولى أعماله منها مباشرة ، وضمها إلى محافظات عيلام ، وتعاونَتْ مدينة سوسه : عاصمة عيلام مع مدينة أكد عاصمة الأكديين تعاوناً ثقافياً وسياسياً وعسكرياً مع احتفاظ عيلام بشخصيتها ، فقد كان من عادة هذا الامبراطور المبدع أن يترك للدويلات أنظمتها الإدارية والعسكرية ويكتفى منها بالانضمام إلى كيان امبراطوريته ، ومع ذلك فقد وجّه اهتماماً خاصاً لعيلام ، فجعل مدينة سوسه العاصمة العيلامية مدينة أكدية فى ثقافتها ولغتها وعقيدتها ، واستمرت عيلام على هذا النحو الثقافى إلى القرن الثالث عشر وكانت الأيام دولاً بين سوسه وأكد تصل أحياناً إلى حرب . وأحياناً إلى تحالف متين ففى عهد نارامسن (٢٢٩١ - ٢٢٥٥) توثقت الصلة بين الشعبين وعقد تحالف بين خيتا ملك عيلام ، وبين نارامسن دفعاً لخطر يهدد سهول الرافدين من ناحية جوتيم (GUTIUM) ، وقد وجد فى هذه المعاهدة (٣٥) اسماً من أسما الآلهة وأمكن اقتطاف عبارتين منها وهما :

عدوّ نارامسن هو عدوّى

وصديق نارامسن هو صديقى

وورد فى الألواح المكتشفة حول صلة الشعبين : أن كويتك قَبلْ أن يكون ملكاً على عيلام وفى عهد الملك خيتا استطاع أن يقوم بحملات بصفته تابعاً لملك أكد . وأول حملة قادها ، كانت فى وادى الرافدين لإخماد ثورة وقعت فى أعالى نهر ديالى وبعد موت خيتا جاء كوتيك (٢٢٤٠ ق م) ويعد المؤسس الأول لعظمة عيلام وتقول الرُّقُم المكتشفة إنه نال عظمته بما أداه من الخدمات للآلهة ، ولذلك قدر أن يقول عن نفسه إننى أملك هذه الأرض لأن الآلهة اختارتنى لتكون هذه الأرض ملكاً لى .

وفى ظلال الأكديين كان للعموريين دولة فى الفرات الأعلى بلغت شأواً بعيداً فى الحضارة ويذكر المؤرخون أن هذا الاسم أطلق عليهم من

قبل السومريين ومعناه (الغربيون) أى القادمون من الغرب ، كما ذكر أن اسمهم مشتق من كلمة عَمَرَ ، بمعنى تردد على المكان وجعله آهلاً خصباً ، وفى عاصمتهم مارى تخلت الأرض عن كنوز لحضارة غنية ، وقد تم ذلك عام ١٩٣٣ ق م فى المكان الذى يسمىَ تلّ الحريرى فلما انتهت دولة أكد ضمت الدويلات العمورية بعضها إلى بعض ولمّتْ شملها وتكونت منها فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد مملكة موحدة دعيت المملكة البابلية القديمة ، ودعى ملوكها بسلالة بابل الأولى بلغ عددهم أحد عشر ملكا حكموا زهاء ثلاثة قرون (١٨٩٤ - ١٥٩٥) من أشهرهم الملك الكبير حمورابى الذى حكم اثنتين وأربعين سنة (١٧٩٢ - ١٥٩٥) .

أنهض هذا الملك العظيم الحياة الفكرية من تعثرها ، وامتلك قوة عسكرية ضاربة أعانته على تحقيق منهجه الفكرى والاجتماعى . وَحَّد جميع الدويلات الصغيرة فيما حوله التى كانت تابعة للدولة الأكدية ، ومن أهمها عيلام : الأكديةُ - ثقافةً - ولغةً - وصناعة وعربية عِرقاً .

وكانت عيلام تحالفت مع أور ولارسا ضد حمورابى . وفى السنة الثلاثين من حكمه زحف بجيشه واستولى على أور ولارسا واستمر فى زحفه حتى وصل إلى الحد الشرقى وهى عيلام فبانت له جبال عيلام كالدمن فأخضعها وكتب فى انتصاراته الأغانى التى تجده منقوشة على الألواح بالحرف المسمارى واللغة الأكدية :

على مدى الأيام ظهر المقاتل المعظم
حمورابى الملك
هو الذى عصف بالعدو فى زحفه
هو الذى اكتسح أرض العدو والصديق
وأنهى فى حروبه جميعها قوة المتمردين
وفى زحفه ظهرت جبال عيلام كالدمن

ولا تهمنا انتصاراته الحربية مثلما تهمنا معالم الحضارة التى أقامتها عبقرية هذا الملك الكبير ومن أعظم الوثائق الفكرية ، تلكم الوثيقة العظيمة المتمثلة فى المسلّة التى نُقِشتْ عليها شريعته المكتوبة بالحرف المسمارى واللغة الأكدية المفتتحة بالعبارة الرائعة التالية « إن الآلهة قد نادتنى لأمنع الأقوياء من ظلم الضعفاء وأنشر النور فى الأرض وأرعى مصالح الخلق » .

والعدل عنوان الحضارة وفى ظلال العدل والأمان تنطلق الأفكار بالإبداع والابتكار

ويسـود فى المجـتـمع خُلق عظيم ، وَحَسْبُ المجتمع عدل واستقامه .

فى هذه المسلّة ٢٨٥ مادة يقول عنها بعض علماء الآثار إن فى هذه الوثيقة ما يرجع إلى التشريع السومرى وإن عبقرية حمورابى صاغت من الفكرى السومرى والفكر البابلى هذه الصياغة البارعة . وفى هذا الرأى شعوبية وتحامل على العبقرية العربية ، ويقول إن آشور انضَوَت تحت عدالتها طوعاً وإن عيلام حملتها من أرض بابل إلى سوسه اغتصاباً ، وقد يكون من خطل الرأى أن يؤخذ بالخبر القائل إن الملك العيلامى شتروك ناحونتى الذى غزا بابل حوالى ١١٧١ ق م قد نقلها إلى سوسه عاصمة عيلام إثر انتصاراته على بابل . إن المسلة مكتوبة بالخط المسمارى ومنقوشة باللغة الأكدية على حجر الديورايت الأسود . وقد نصب حمورابى هذه المسلة فى فناء معبد ايزاكيلا معبد الإله مردوخ الإله الرسمى للدولة البابلية ، ونصبَ مثلها فى معبد الآله شمش فى مدينة سيبار الإله الرئيسى للمدينة. ولِمَ لا تكون المسلة نُصبتْ فى مدينة سوسه بمحض إرادة حمورابى . ونحن نعلم الجهدَ الذى بذله الملك سرجون الأكدى فى جعل سوسه أكدية اللغة والثقافة والعقيدة عربية الأصل والنزعة ، كما نعلم أن التشريعات كلها وصلت إلينا بألواح مكتوبة بالأكدية ، إن هذه المسلة عنوان حضارة أمة ذات مجتمع فاضل له آفاقه العلمية فى الهندسة والطب والرىّ والزراعة والتجارة والصناعة والآداب والفلسفة والتشريع ، متماسكة فى علاقات وثيقة بين الفرد والمجتمع وبين الفرد والدولة يستند كل ذلك إلى حفظ حقوق الإنسان ، وقد قال حمورابى إن الآلهة طلبت منه أن يقوم بذلك فيمنع الأقوياء من أن يظلموا الضعفاء فلِمَ إذن لا يصح الافتراض أن حمورابى نصبها بنفسه حين ضم عيلام إلى امبراطوريته لأهمية سوسه وصلة الشعبين صلة قرابة ووحدة لغة وتأريخ وهدف ، لقد عثر على المسلّة فى سوزيان (الأهواز) حوالى ١٩٠١ ونقلها الفرنسيون إلى متحف اللوفر شامخة الذرى حاملة عبقرية الشرق إلى عباقرة الغرب مثقلة بالمصطلحات التشريعية بأصول اللغة العربية قبل أن يعرف العرب الإغريق والرومان .

وفى ظلال الأكديين ، وفى المنطقة الشمالية من سهول الرافدين فى البقعة الممتدة على طول ضفة نهر دجلة اليمنى بين

الموصل والشرقاط ، وفى هذه البقعة التى كانت تعرف باسم شويارتو ، وفى الألف الثالثة قبل الميلاد استقرت قبيلة عربية أسست مدينة آشور نسبةً للآله آشور فعرف أبناؤها بالآشوريين ، ومن ثم أطلق على المنطقة كلها اسم آشور ، وفى هذه البقعة أقام هؤلاء النازحون إمارة صغيرة على غرار المدن الأكدية فى جنوب العراق وظلوا على اتصال دائم بالأكديين يقتبسون منهم صناعة النقش والعمارة ووسائل الزراعة (رغم أن زراعتهم كانت تعتمد على الأمطار أكثر من الاعتماد على الرى بمياه الأنهار) ووسائل المعيشة وأسبابها ، ويكتبون بكتابتهم ، ويتكلمون بلهجة تقرب من اللهجة الأكدية إلى أن أصبحت اللغة الأكدية لغة الثقافة والتخاطب ، بل اللغة الرسمية فى المنطقة كلها ، وناهيك بما تأتى به هذه الظاهرة من تقارب وامتزاج بين المدن والإمارات فى شتىَ نواحى الحياة ، وقد وقع الآشوريون تحت نفوذ الأكديين والبابليين ، ثم وقعت تحت أيديهم حضارة البابليين والأكديين والعيلاميين والعموريين والكنعانيين والفنيقيين والمصريين ، وفى اتساع ملكهم واشتداد قوتهم الضاربة قضى سرجون الثانى عام ٧٢٢ ق م على مملكة إسرائيل قضاءً نهائياً وأزالها من الوجود فى أرض كنعان ، ونفى الأسباط العشرة المكونّة لها ميديا ، وأسكن مكانهم الكثيرين من المدن المجاورة لمدينة القدس ، وزحف أسرحدون بن سخاريب (٦٨١ - ٦٦٩) على مصر فاستولى على ممفيس وعلى أكثر مدن مصر العليا ، وفى ثورة ترهافة تمكن آشوربانيبال (٦٦٩ - ٦٢٦) من التغلب عليه فاستولى على طيبة عاصمة مصر الجنوبية أيضاً وبذلك خضعت مصر كلها للحكم الآشورى ومن بين هذه الغزوات المتكررة واحتكاك الآشوريين المستمر بالشعوب المختلفة ، كانت الحضارة تنمو ، وكانت صناعة الحديد والمعادن تتقدم ، وكانت صناعة الأدوات المعدنية فى أنواعها المختلفة تسير جنباً إلى جنب مع صناعة السلاح ، فقد استخدموا المركبات وأبدعوا فى صناعة المنجنيق بأنواعه المختلفة ، واتسع نطاق تجارتهم باتساع فتوحاتهم ، فأنشأوا لها المراكز المهمة فى أماكن عديدة ؛ وخاصةً فى جنوبى شرقى آسيا الصغرى واهتموا بالاقتباس من الأمم التى اتصلوا بها ، فبرعوا فى الفنون المختلفة، فأتقنوا فنّ النقش والنحت والتصوير، وأخذوا عن البابليين الأدب والفلسفة

والتشريع و تركوا وراءهم خِزانة ثريّة من الرقم الطينية عثر فى الحفريات منها على ٢٥ الفاً نقلت إلى المتحف البريطانى وهى تنتظر من يفك حروفها لتفصح عن فكر ناضج وعبقرية عربية لأمة دوخت شعوب الشرق الأوسط .

وبعد فقد كانت أقاليم الجزيرة والهلال الخصيب بقسميه: سهول الرافدين وبطاح سورية وبادية سيناء وشواطىء النيل بمختلف كياناتها الدولية تعيش فى وحدة جغرافية مترابطة الأجزاء متواشَجة الأصول ، وكانت القوافل التجارية تسير شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، وكان الأكديون يجوبون قلب الجزيرة ، وأسطول سرجون الأول يمخر عباب الخليج العربى وبحر العرب وخليج عمان والبحر الأحمر ، ويسيطر على ما فيها من الجزر والمضايق ويمنع كل طامع للوصول إلى ثغور البلاد ، وكان البابليون يتخذون من تيماء الواحة المعروفة فى الحجاز مقراً لهم أحياناً مع مدينة بابل وكانت سفن الفنيقيين تتهادى فى البحر الأبيض المتوسط تنقل بضائع الشرق إلى الغرب ، ومع اختفاء الامبراطوريات العربية الكبرى مثل أكد وآشور وبابل لم تختف معالم الثقافة والمعرفة فقد تركت تلكم المعالم الحضارية بصماتها فى كل مكان فى الهلال ، والجزيرة ، وقد كانت فى اليمن دول متمثلة فى المعينية والسبأية والحميرية والجرهمية ، وكلها لها مظاهر حضارية ممتازة ، وكانت جميع المواصلات تحت سيطرة هذه الدول ، ومع ذلك فقد كانت الحروب أقدر على التمازج والاختلاط .

واللغة العربية فى لهجاتها بين هذه الدول والأقاليم تتطور وتنمو بين مشاهد الحضارة وعادات الأمة وتقاليدها ومشاهد البداوة وعادات العشيرة وتقاليدها وكان عباقرة العرب لا يفتئون يبذلون الجهد فى تطوير اللغة وتحسين القراءة والكتابة ، وناهيك بهذه اللغة المعطاءة فى أبنيتها وتراكيب أفعالها واشتقاقها فكانت فى عطائها مثل الأم المرضعة هذه ترضع أبناءها أفاويقَ اللبن وتلك ترضع أبناءها أفاويق البيان ، لإقدار العلماء على وضع المصطلحات وإيجاد المفردات وابتداع أسماء المسميات لإكمال صحة التعبير عن التسمية والفكرة فى شتى فروع المعرفة العلمية والفنية والأدبية .

عن كل ذلك كشفت لنا بطون الأرض فى حضارة أكد وعيلام وأشور وبابل ، وعن حضارة العموريين والكنعانيين والفنيقيين

والأراميين والتدمريين والأنباط ، وجاءتنا الأخبار تنبىء عن آداب للخميين فى سهول الرافدين، وحضارة الغساسنة فى بطاح سورية، وعن اتصال البادية بالحاضرة وصلة الغساسنة بندوة قصى وأسواق مكة : عكاظ ومجنة وذى المجاز صلات يأخذ بعضها برقاب بعض ، حتى بزغت شمس العقيدة الأسلامية فأعيد التأريخ جَذْعَةً ، واشتركت فى هذه المرّة السماء تؤكد «اقرأ باسم ربّك الذى خَلق خلقَ الانسان مَن علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علّم الإنسانَ ما لم يعلم .» وصفوة القول

كشفت لنا بطون الأرض عن كنوز ثَريّة ، كانت مسلّة حمورابى من أجلّ ما عثر عليه . كشفها العالم الفرنسى دى مورجان عام ١٩٠١ فى سوسه وحملها الفرنسيون إلى باريس تحمل فى جنباتها ٢٨٥ مادة تشريعية غنية بمصطلحات الفقه والقضاء التى تنبىء عن بناء مجتمع تسوده العدالة . وكشفتْ لنا آثار سوسه عن ٤٥٠ لوحاً مكتوباً باللغة الأكدية كلها تعالج الملكيّة وعشرين وثيقة وُجدت فى خوخنور (KHUKHNUR) وكلها تحتوى شروط الالتزام وإيقاع العقاب على من يخيس بالعقد .

وقد كان العيلاميون يفصلون فى قضاياهم بالأصول العرفية المتبعة بينهم فلما تسلّط الأكديون على سوزيانا أخذ العيلاميون يدونون القوانين ، وقد يكون من باب التوضيح أن نذكر حالة من الأحوال المدنية فصل فيها استناداً إلى القانون المدون وردت فى لوح من الألواح المكتشفة ولم ترد بَعْدُ فى كتاب عربى وهى : (اشتكى أخوان يطلبان تسليم قطعة أرض استولىَ عليها ابن عمهم الذى كان أبوهما قد تبنى أباه فجعله أخا له ، وهذا بدوره تبنى هذا الولد المشتكى عليه ليكون ابناً له ، فهو على هذه الحالة ابن عمهم .) ورُفعت القضية إلى القاضى ، فأخذ الولد يدافع عن نفسه قائلاً : إن والد المشتكيين قد تبنى والدى أخاً له ، وإننى استند إلى القاعدة الشرعية التى وضعها الآله (إن شوشيناك ، والإلهة إشمى كاراب (ISHME KARAB) التى تنص على أن تبنى الأخ يكوّن علاقة أخوية ، وتبنى الولد يكون علاقة أبوية وبناءً على هذا فإننى قد وَرِثْتُ الأرض التى حصل عليها والدى من أبيهما الذى تبناه ، فتشكلت المحكمة من المستشار والقاضى والمحافظ وبعضاً من سكان المدينة ووضع كشف بجميع

أملاك أبيهما ، وبعد المداولة والفحص صدر الحكم فى صالح المشتكى عليه ، وسمح له بالاحتفاظ بقطعة الأرض التى حصل عليها أبوه بالتبنى : كأخ لأبيهما ورفضت دعوى المشتكيين ، وكتب الإعلام الشرعى محتوياً على ثلاثة وعشرين شاهداً مبتدئاً بالمحافظ ومنتهياً بكاتب المحكمة ، وذيلت وثيقة الحكم باسمى الآلهين المذكورين ، وطلب فى الوثيقة من الولدين المشتكيين أن يعودا إلى بيتهما بسلام وختمت بختم عليه صورة الآله واقفاً على كرسى رسمى رافعاً يديه إلى السماء داعياً . وقد أرفق بالإعلام الشرعى وثيقة كتب فيها (إن كل من يعترض على هذا الحكم سواءً من المدعى والمدعى عليه سيقع تحت طائلة غضب الآلهين : (خوميان) ، و (إن شوشيناك) وستضرب الإلهة إشمى كاراب رأسَ من يدمر هذه الوثيقة .

هذه الحالة تعرب عن وصول القضاء فى عيلام إلى ذروة التقدم فى المرافعات والإجراءات القضائية فى الفصل بين المتخاصمين فضلا عن غناها بالمصطلحات التشريعية التى تستعمل اليوم .

ووردت ألواح تنبىء عن طبيعة الحكم فى إدارة الدولة ، ونتيجة للعثور على ثلاثة ألواح بالأكدية ظهر لنا أن هناك مشاركة بين المملكة البابلية وعيلام فى وضع التشريعات التى طبقت فى عيلام ، من هنا نستنتج أن قانون حمورابى كان نافذاً فى عيلام إلى درجة ما وقد أخذت بابل من القانون الزراعى العيلامى فوضعت فى قوانين بابل لكى ينفّذ قانون حمورابى فى عيلام .

إن طريقة التشريع (KUBUSSUM) بالأكدية التى تسمى القانون المقدس للمعبد يضعها الكهنة ويعزونها إلى وحى إلهى أما القوانين الإدارية فيضعها نائب الملك وأمير سوسه .

وكشفت لنا الآثار - فى سهول الرافدين عن ثروات علمية مدهشة ، تركها لنا الأكديون والبابليون والسومريون والآشوريون : كشفت عن ألواح طينية مرقومة ، عليها جداول الضرب ومسائل الجمع والطرح والضرب والقسمة ، والجذور التربيعية والتكعيبية ففى تل حَرْمَل والضَباعيِ الواقعين فى بغداد الجديدة ، اكتشفت رقم طينية من مصنفات المؤسسة العلمية فى ذلك العهد ، تناولت فى كتاباتها نواحى المعرفة من شرائع

وآداب ورياضيات وفلك وجغرافية وموسيقى ومن هذه الرقم لوح يتضمن نظرية هندسية خاصة بتشابه المثلثات على نمط ما عرف بعدئذ بنظرية أقليدس ، وبين هذه الرقم لوح رياضى هندسى على مثال ما عرف بنظرية فيثاغورس ، وبعبارة أوضح إن بعضاً مما عثر عليه من النظريات الهندسية والمسائل الجبرية وجدت فى سهول الرافدين قبل أن يولد أقليدس ويولد فيثاغورس بقرون عديدة ، ولا شك فى أن هذا النتاج الفكرى لم يكن ابن يوم ولا ابن الصدفة ولابد من أنه مستند إلى منهج متطور وكتاب ومعلم .

وناهيك بما قدمته ملحمة جلجامش التى نَسجَ خَيالها على شاطىء دجلة والفرات روائع الفن ، عرضت هذه الملحمة حياةَ الانسان فى خيرها وشرها فى وحشيته وتهذيبه فى قوّته وضعفه فى طموحة ولهوه ، وفى صبره، وجزعه، فى مثابرته وتهاونه وبخيال رائع نشرت فى ثنايا عباراتها سرّ التكوين والخلود وعلة الفناء والوجود فى حوار جميل بين جلجامش الذى تعتبره الملحمة ثلثى آله وبين الإلهة عشتار بعد عودته مع صديقه أنكيدو وقضائهما على الشرّ فى جسد خَمْبابا بين أشجار الأرز وفى ثنايا هذا الحوار الفلسفى لم تغفل الملحمة شأو ما وصلت إليه الصناعة فى سهول الرافدين ، تقول الملحمة :

(رَفَعَتْ عشتار الجليلةُ عينها ورمقت جمال جلجامش فنادته !

تعالى يا جلجامش كن عريسى !

وَهبنى ثمرتك أتمتع بها . كن زوجى !

وأكون زوجك ! سأعِدُّ لك مركبة من حجر الآزورد والذهب .

وعجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز .

وستُربط لجرّها شياطين الصاعقة بدلاً من البغال الضخمة . وعندما تدخل بيتنا ستجد شَذَىَ الأرز يعبق فيه ، فإذا دخلت بيتنا فستقبّلُ قدميكَ العتبةُ والدكّة سينحنى لك الملوك ، والحكام والأمراء ، سيقدمون لك الإتاوة من نتاج السهل والجبل وسيحمل معزك الثلاثَ ، ونعاجُك التوائمَ . وحمير الحِمل عندك ستفوق البغالَ فى الحمل ، وسيكون لخيول مركباتك الصيت المعُلّىَ فى السباق . وثورك لن يكون له مثيل فى نيره .)

ففتح جلجامش فَمَه وأجاب عشتار الجليلة وقال : ولكن ماذا علىّ أن أعطيك إن تزوجتك أتحتاجين إلى السمن (الزيت) والكساء

لجسدك ؟ وأى أكل وشراب تحتاجين إليه مما يليق بِسِمَة الألوهية ؟ أى خير سأناله لو تزوجتك .

أنتْ ما أنت إلا الموقدِ الذى تخَمد ناره فى البرد !

أنت كالباب الناقص لا يَصدُّ عاصفةً ولا ريحا.

أنت قصر يتحطم فى داخله الأبطال ، أنت فيل يمزق رَحْله

أنت قير يلوث من يحمله وقربة تبلل حاملها ،

أنت حجر مرمر ينهار جِدارُه

أنت حجر (يَشْبٍ) يستقدم العدو ويُغْرِيه .

أنت نعل يقرص قدمَ منتَعله أيّ من عشّاقك من بقيتِ على حبه أبدا ؟ وأيّ من رعاتك من رضيت عنه دائما ؛ تعالىَ أقص عليك مآسى عشاقك .

وبمثل هذه العبارات الرائعة والأمثلة المحكمة ؛ أخذ جلجامش يحاورها وأخذت اللغة تتدفق لتجعل لما يجول فى الذهن وجوداً خارجياً وثراء لغوياً يعين التفكير على التعبير.

أما آثار مدينة مارى العمورية فى الفرات الأعلى فقد كشفت عن روائع الفن والتنظيم ومعالم العلم والمعرفة فى صناعة الأجيال وقد تم العثور عليها عام ١٩٣٣ ، وأبهج ما فى هذه المعالم الحضارية قصر الملك زمرى ليم (١٧٣٠ - ١٧٠٠) آخر ملوك مارى . وقد وجد فيه ما يقرب من ٢٤٠٠٠ لوح طينى مرقوم بالكتابه المسمارية ، ويغلب على لغتها اللهجة الأكدية ، ويحتوى القصر على ٣٠٠ غرفة ممتازة منها غرفتان مزودتان بالمقاعد تشبهان غرفة التدريس أو أبْهاءَ الاجتماعات ، وفى بعض هذه الغرف ألواح جدارية جميلة باطارات ورسوم متقنة الصنع للرجال والآلهة وتتبسط ساحة القصر بأكثر من ستة أفدنة ، فيها مرافق للإستحمام وتصريف المياه . ومن روائعة الفنية رسم ملون بألوان زاهية يمثل الملك يتسلم من عشتار رموز السلطة .

وعلى شواطىء النيل وسهول سيناء وشواطىء البحر الأبيض وصل الفكر العربى إلى الذروة فى الثروة الثقافية من بين قوم تربطهم أواصر القربى والوحدة الجغرافية والمصالح الاقتصادية والسياسية : هم المصريون والفنيقيون (الكنعانيون) .

يقول الأستاذ عزة دروزة فى كتابه (تأريخ الجنس العربى) نقلاً عن المؤرخ ما سبرو إن لعروق المصريين الأقدمين والعرب الفنيقيين والكنعانيين روابط تشد بعضها إلى بعض ،

وليس المصريون سوى عرب انفصلوا عن مهد العروبة قبل غيرهم ، وفى هذه الهجرة جاءوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية والوثنية ، ويقول الأستاذ جورجى زيدان فى كتابه (العرب قبل الإسلام ن) قلاً عن المؤرخ KING (كينج) إن العرب نزحوا إلى مصر من عهد قديم جداً، ومن الاكتشافات الأخيرة يظهر أن العصر الحديدى بدأ فى مصر حين دخول العرب إليها، أى أن العرب أدخلوا على مصر فن الحدادة فى أقدم أزمنة التأريخ المصرى ، ولعلهم حملوا ذلك من وادى الفرات أو من بلاد كنعان .

لقد ضرب الفنيقيون فى الأرض ومخرتْ سفنهم ، فأبْعَدوا فى البحر وكانوا أول أمة فى التأريخ تاجرت فى البر والبحر ، فكانت تجارتهم تصل من موانئهم على الأبيض المتوسط إلى مراكز تجارتهم فى الخليج العربى، وقد حققوا أعظم عمل بحرى فى دورانهم حول أفريقيا ، قبل البرتغاليين بألفى عام ، وكان عملهم هذا بأمر من فرعون مصر نخاو (٦٠٩ - ٥٩٣) من السلالة السادسة والعشرين ، وهو الذى أعاد حفر الترعة القديمة التى كانت تربط الفرع الشرقى للنيل بطرف الأحمر الشمالى ، وكانت المدن الكنعانية تحمى دوماً بمصر بل كانت كنعان تعتبر محافظة من محافظات مصر ، وترى فى فرعون مصر حَامياً من هجمات الأعداء (رسائل ، تل العمارنة رقم ٢٨٥ - ٢٩٠) .

لقد أسهم المصريون والفنيقيون فى إبداع الصناعة وتنمية الزراعة والمحافظة على طرق التجارة وسلامة المواصلات البرية والبحرية ، وفى قِصّة (سنوحى) الأسطورية وصف دقيق لمعالم الحضارة : أبرز ما فيها دقة الصنع فى الأثاث والثياب والذوق الرفيع فى الحِلىّ وصناعة الذهب ، والمتاحفُ المصرية والأهرام تنطق رغم صَمْتِ أبى الهول بما وصلت إليه مصر فى الفن وبما كُتِبَ على أوراق البردى من النصوص ، فى الطب والهندسة والعلوم ، والآداب والفلسفة والعقيدة ، وبما نقشت على الألواح فى حوادث الحروب ولم يقل النتاج الحضارى عند الكنعانيين عنه بما عند أبناء عمهم العموريين والبابليين ، والآشوريين والمصريين ، فإن الصلات المستمرة حرباً وسلماً بين الرافدين وبطاح سورية وشواطىء النيل ساعدت كثيراً على تنويع وتلقيح الحضارة بين هذه الأقاليم ، يدل على ذلك ما جاء فى تنوع الكتابة التى كانت تستعمل فى توثيق العقود

وتبادل الأفكار العلمية والأدبية والدينية والمراسلات السياسية ، التى انطوت كلها فيما بعد تحت المسمارية ، واللهجة الأكدية التى عرفت فيما بعد بها مراسلات تل العمارنة . اكتشفت من هذه الكتابات أنواع فى رأس شمرا عام ١٩٢٩ وفى بيبلوس عام ١٩٣٠ . تعلم الكنعانيون الكتابة بالحروف المسمارية واللغة الأكدية فى مدارس أسست خاصة بها مجهزة بالمعاجم وقوائم المفردات والتمارين التطبيقية ، من هذه المدارس اكتشف نموذج لبقايا مدرسة للكتبة ملحقة بمعبداً أوغاريت ، فكانت هذه المسمارية مع الهيروغليفية أساساً لإيجاد الأبجدية الفنيقية . التى هى الأبجدية العربية .

ويعد من أثمن المكتشفات فى أوغاريت الكتابة الأبجدية من النوع المسمارى واللهجة الكنعانية وتضم هذه الأبجدية ثلاثين حرفاً . ويؤكد المؤرخون والأثريون : أن الأبجدية الفنيقية وضعت فى سيناء بمكان يقال له (سرابيط الخادم) لسهولة التفاهم بين المصريين ، والكنعانيين ، الذين يعملون فى مناجم الفيروز ومن بين الهيروغليفية والمسمارية نبعت فكرة جديدة وهى أن تختزل الهيروغليفية ، فيحل الحرف محل الصورة ، ويعطى الحرف الصوت الأول . فى الشىء الذى يمثله ، فعلامة بيت سموها (بيت) واستعملوها لصوت (ب) وعلامة (يد) سموها (يود) واستعملوها لصوت (ي) وعلى هذا النمط تمكنوا من تشكيل مجموعة بسيطة من العلامات التى يمكن أن تتهجى بها الكلمات ، فكانت الأبجدية ، وتم أعظم اختراع أتى به الإنسان فى محيط الحضارة البشرية وقدم العرب بهذا الاختراع أجل نعمة للإنسانية .

واقتبس الأراجون الفنيقية وكتبوا بها وطوروها حتى أصبحت فى عام ٤٨٦ ق م اللغة الرسمية فى المنطقة كلها وعنها أخذ الأنباط الكتابة وطوروها ، فأخذت فيما بعد طابعاً مميزاً وعن الأنباط أخذ عرب الشمال فى الجزيرة أبجديتهم التى أخذت شكلها العربى الذى كتب به القرآن . وأخذ المعينيون الأبجدية الفنيقية لسهولة تناولها ، فدونوا بها لغتهم وهى عامية بالنسبة إلى لغة بابل ، فتنوعت وتطورت بمرور الأيام حتى وصلت إلى حرف المسند ، وإذا صحت الرواية أن المعينيين كانوا فى سيناء فلا يبعد أنهم أخذوا الفنيقية مباشرة وطوروها وفق المتغيرات الثقافية، وفى ما بين

٨٥٠ ، ٧٥٠ ق م نقلها اليونانيون إلى الغرب بعد أن أدخلوا عليها بعض التحسينات ، ثم تلقفها منهم الرومان ، فانتشرت أبجديات وفق مقتضيات الأحوال والارتقاء فى أرجاء المعمورة ومع هذه الحضارات التى مرت بنا أسهمت دولة الأنباط وتدمر ودولة الغساسنة فى بطاح سورية ودولة المناذرة فى سهول الرافدين . وندوة قصى فى مكة المشرفة على عكاظ ومجنة وذى المجاز تلك الندوة المتمتعة بكيان دولى ونظام شورى متقن وأمن مُسْتَتب .

الأنباط :

حفر الأنباط عاصمتهم البتراء بين الأردن والحجاز فى قلب صخر رملى فبدت عروساً تعكس جمالاً فريداً فى الفن وبهاء الطبيعة ، ويقول المؤرخون إن أول تأريخ ثابت لعهد الأنباط هو عام ٣١٢ عندما صدوا هجوماً لأحد خلفاء الإسكندر ، واندفعوا فى استنباط المياه وانتزاع جزء من الصحراء القاحلة ، وحولوها إلى مروج خضراء ، وسيطروا إبّان القرن الرابع على طرق القوافل التى تمر بين جنوبى الجزيرة العربية وشماليها ، وعلى الطريق المؤدية إلى مرفأ غزة فى الغرب وإلى بصرى ودمشق فى الشمال ، وإلى أيلة على البحر الأحمر وإلى مرافىء الخليج العربى عبر الصحراء ، وبسطوا الأمن فى هذه الربوع ، وبرزوا فى الوجود الدولى شعباً ذكيا يمتلك قوة ضاربة وارتبطوا بحلف مع الرومان ، فنمتْ التجارة والزراعة فى ، ظلّهم وأنشأوا مجتمعاً فاضلاً يتصف بالطيبة والوداعة ، حتى إن أفراده لايحتاجون إلى رفع الدعاوى فيما يحدث بينهم .

ولكثرة اتصالاتهم السياسية والتجارية مع الكيانات الدولية والمحيط السياسى والتجارى كتبوا بالقلم الآرامى واللغة الآرامية ، وهم يتكلمون العربية وفى مرور الزمن أخذت الكتابة طابعاً مميزاً عن الآرامية وتكونت الكتابة النبطية . وعن النبطية أخذ عربُ الشمال فى الجزيرة . وبذلك يمكننا القول إن النبطية تعتبر جسراً واسعاً انتقلت عليه ثمار حضارات الأمم السالفة التى تحررت فى أصلاب الزمن من عهد سومر فى جنوب العراق وأكد فى أواسط الفرات إلى الأنباط فى مشارف الشام وإلى الحجاز فى وادٍ غير ذى زرع .

ويقول المؤرخون إن حضارة الأنباط عربية فى لغتها آرامية فى مراسلاتها يونانية رومانية

فى فنها وهندستها المعمارية ولكنها عربية فى أساسها . ومهما يكن فقد عبر الكثير من المصطلحات والمفردات العلمية والأوربية إلى العربية بطريق الأنباط .

تدمر :

ولما أفلت شمس البتراء بزغتْ فوق مدينة (تَدْمُر) التى أصبحت فيما بعد مملكة ذات كيان دولى لها أثرها فى السياسة الدولية .

ضربتْ تدمر بسهم وافر فى الصناعة والزراعة والتجارة ، وبسطت نفوذها فى مملكة واسعة شملت سورية وقسماً من آسيا الصغرى وشمالى الجزيرة العربية ، وارتبطت بحلف دفاعى مع الرومان الذين كانوا ضعافاً أمام الساسانيين ، فقد انهزم جيشهم وسقط الامبراطور فاليران أسيراً ثم قتل ، فاستنجدوا (بأذَيْنَة) الملك العربى ، فتقدم بجيشه العربى اللجب فهزم الفرس الساسانيين وتتبعهم حتى زَبَنَهم فى عاصمتهم برسبوليس فى فارس . وبسطت تدمر الأمن مابين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربى ، فأخذت القوافل التجارية تسير رخاءً فى غدوٍ ورواح . ومن روائع نظام هذه الدولة تشجيع الماهرين من أبنائها فقد أقام (مجلس الشعب) تماثيل لرئيس القافلة ، ورئيس السوق فى المحيط التجارى وللقادة فى الجيش مثلما تقام للملك والملكة .

وكتب التأريخ صفحة مجيدة للملكة الزباء أو (بنتُ زاباى) أى بنت العطيّة ومعناها فى لهجتنا اليوم (هِبَة) فقد حباها الله جمالاً وبسطة فى القوة وكانت تعيش حياة مُتْرَفَة فى بلاط تحفه الفخامة ويتبع فى نظامه نظامَ الأكاسرة استنجد بها الامبراطور أورليان لإخماد تمردٍ فى مصر ، فجهزت جيشاً قوامه : ٧٠٫٠٠٠ جندى ، فخلعت الحاكم المتمرد وأقامت حامية فى الإسكندريه . وسكّت النقود ووضعت رأس ابنها (وَهبُ اللات) على قطعة النقود بجانب أورليان الامبراطور ، ثم نزعتْ رأس أورليان وأبقت رأس ولدها فى اعادة سك النقود ، وخافت الامبراطورية الرومانية من دولة تدمر أن تطردها من الهلال الخصيب وآسيا الصغرى فغدرت بالملكة ، وأُخِذتْ الزباء إلى روما مقيدة بسلاسل الذهب : وقام أورليان بنفسه وفاجأ المدينة ، فهدمها وأعمل السيف فى قوم كانوا بالأمس عدة الامبراطورية ومثال الوفاء العربى ، وموطن الأمن والأستقرار .

وآثار تدمر الشامخة فى منبسط الصحراء فتنة المعالم جمالاً وجلالاً ، وحسبك أن ترى روعة ذلك فى معبد بعل وفى الأعمدة المقامة فى الشارع الكبير المزدانة بتماثيل شيدت لتشريف المواطنين الذين يستحقون التقدير . أما التماثيل النصفية فتمتاز بعيون مفتوحة واسعة وبالكتابة الأثرية فوق الكتف ، وللزخارف المنحوتة أهمية خاصة بالنسبة لتأريخ الفن ومسيرة الحضارة ، اذ أنها تعطينا مبلغ تأثير الفن العربى القديم فى بابل وآشور وفينيقية وكنعان على الرسوم الإغريقية والرومانية مما مهد الطريق لظهور الفن البيزنطى .

ومن التماثيل المهمة تمثال الملكة الزباء الذى أقيم على عمود عال فى شارع الأعمدة الكبير فى (أغسطس - آب) من عام ٢٧١ م نقشت عليه كتابات باللغة اليونانية والتدمرية ولاتزال واضحة إلى اليوم وهى :

إلى سيدتهم سُبْتِمْيَا زنوبيا أكثر الملكات شهرةً وتقوى وإلى القائدين الممتازين بلقب سبتميوس وهما زَبْدة القائد العام وزباى قائد الموقع (فى آب - أغسطس من عام ٥٨٢ [1]) .

* غسان :

وبينما كانت تدمر تقارع الزمن ويُنذرُ الأفولُ شمسَها كانت قبائل غسان بقيادة زعيمها الأول جفنة بن عمرو وتشق طريقها إلى حوران ، وفى الجابية من منطقة الجولان ألقت عصاها وكونت إمارةً ما لبثت أن صارت دولة تمتلك قوة ضاربة حَسِب لها الروم حساباً ، فارتبطت هذه الدولة العربية معهم بحلف يضمن كرامتها وأخذت تزود عن الروم غزوات الفرس الساسانيين المتعاهدين مع المناذرة فى سهول الرافدين . وفى عهد الحارث بن جَبَلة بلغت ذروة القوة وانبسط سلطانها على المنطقة التى تمتد من البتراء إلى الرصافة شمالى تدمر فشملت البلقاء والصفا وحَران وغدت بصرىَ مركزاً تجارياً تمر به القوافل بين دمشق والحجاز وعلى طول الحدود بين الامبراطورية الرومانية والساسانية أنشأ الغسانيون خطاً طويلاً مؤلفاً من عدة حصون للدفاع عن الرومان ، يقول الأثرى الفرنسى (دوسو رينيه) (RENÉ DUSSAUD) الذى ارتاد جبال حوران: إن من هذه الحصون قصوراً منها القصر الأبيض

(١) هذا التأريخ بالنسبة للعصر السلوقى يبدأ فى تشرين الأول عام ٣١٢ ق م .
راجع فيليب حتى حـ - ١ ص ٤٣٨ .

والنمارة ودير الكهف والقلعة الزرقاء ، ويمتاز القصر الأبيض ، بالنقوش الجميلة التى تحتوى على صور وطيور وخيول وفهود وأسود وبقر وأفيال حتى السمك ، وفى الأبنية أثر من الطراز الساسانى مما يدل على سمو الفن والذوق الرفيع فى حضارة متحدرة من الأصول العربية مشتبكة بالرومانية والفارسية .

وتمتاز حضارة الغساسنة باشتباكها فى الحياة الأدبية مع الحيرة وسوق عكاظ فى مكة ، فقد كان الشعراء يترددون بين الحيرة والجابية ومكة وينعتون الملوك والأمراء وقادة الجيوش بالفضل والكرم والحلم والشجاعة والإقدام وقد خلّد حسان بن ثابت بنى غسان بروائع القصائد كما يدعى الانتساب إليهم ، ونقل عنه فى كتاب الأغانى وصف بديع للحياة المترفَة التى كان يعيش فيها جبلة بن الأيهم . وكان حسان يقول : (والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلعَ علىّ ثيابه التى عليه ذلك اليوم) .

ولما تخاصم النابغة الذبيانى مع النعمان بن المنذر قصد بلاط غسان فمدحهم وخلد ذكرهم بشعره ومنه :

وَثقتُ له بالنَصْر إذْ قيل قد غَزَتْ
كتائبُ من غسّان غير أشَائِب .

بنو عَمّه دُنْيا ، وعمروُ بنُ عامرٍ
أولئك قومٌ بأسُهم غيرُ كاذب

اذا ما غزوا بالجيش حَلّق فوقهم
عَصائبُ طير تهتدى بعصائب

إلى أن قال :

ولا عيبَ فيهم غير أن سُيوفَهم
بهنّ فُلول من قِراع الكتائب

وأبرز ما فى حضارة الغساسنة جانب أدبى شعرى فى تهذيب النفوس وبناء الخلق والاعتزاز بالكرامة وكلها عوامل تدفع الفكر الإنسانى إلى الإبداع والإيجاد .

ندوة قصىٍّ أو دولة مكة :

أقيمت قواعد أول بيت بمكّة ليفد إليه الناس ، ليشهدوا منافع لهم ويتداولوا فيما بينهم فتمتزج الحضارات ويتعاون الفكر الإنسانى فى الإيجاد والتكوين والاستمراروقد وردت روايات مختلفة فى شأن البيت ، أهمها أن أمرَه أصبح بيد قصىّ وهو من لهازم قريش الذى يقال عنه إنه أول من أصاب ملكاً من أولاد كعب .

وكانت له الحجابة والرفادة والسقاية وهو أول مؤسس لدار الندوة (مجلس الشورى) ومهمة هذه الدار : لا تقضى قريش أمراً إلا

فيها، ولا يتشاورون فى أمر نزل بهم إلا فيها، وفيها يعقد لواءُ الحرب ، وميثاق السلم ، ولا يعقد نكاح الا فى هذه الندوة ، ولا يدخلها عضو للبتّ فى الأمور إلا من تجاوز الأربعين ، وهو أهل لأن يفصل فى الأمور ، فهى مجلس شوريَ أو مجلس أمة بل هى مدرسة عليا لاستكمال المهارات وتقديراً للقدرات . وكانت الرفادة خَرْجاً تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصيّ ليضع به طعاماً للحجاج يأكلُ منه من لم يكن فى سَعَةٍ ولا زاد ممن يحضر الموسم ، وكانت له السقاية فكان يتخذ للوافدين حياضاً من الجلود توضع بفناء البيت يُسْقَى منها الماء العذب ، ولما أصاب الجدب مكة فى أيامه ، بعث حفيدَه إلى الشام ومعه ما تجمع من خرج قريش ، واشترى به دقيقاً وكعكاً، ونحر الجزور وطبقه وجعله ثريدا وأطعم الناس فسميّ بذلك هاشماً لأنه هشمَ ولثريد ، جَرى ذلك فى الجاهلية حتى قام الإسلام فاستمر كذلك كما يقول الطبرى إلى أيامنا هذه أى أيام الطبرى فى مفتتح القرن الرابع الهجرى .

ومن أنظمة دولة مكة أن تقف الحرب أربعة أشهر حُرمٌ يبسط الأمن فيها جناحه وهى رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، و المحرم فتردُ الوفود والقوافل إلى أسواق مكة : فى عكاظ والمجنه وذى المجاز ، تعرض فيها البضائع بيعاً وشراء ويلتقى الأدباء والشعراء، ورواة الأخبار ، فتنشد الأشعار ، ويتفاخر القوم ويتكاثرون ، وتنصب القباب للحكام لمباراة الشعراء ، فيفصلون فى محاسن القصيدة ، فإذا امتازت كتبت بماء الذهب وعلقت على جدار الكعبة ، وسميت معلّقةً أو مذهبة ، ونال قائلها وسام الفخر وحفلت به القبيلة وأقامت الأفراح ابتهاجاً بتخرّج بليغ ينطق بالحكمة والبلاغة ويتصدر قومه عند التكاثر والتفاخر والسفارات بين القبائل ، وبهذا المظهر الحضارى تجمع ثمار أصول الثقافة وتنمو اللغة للإعراب عن التفكير .

المناذرة :

وفى سهول الرافدين وعلى الضفة الغربية من نهر الفرات ألقى اللخميون عصا الترحال فى منطقة الحيرة وابتنوا القصور ، وكان من أهمها قصر الخورنق والسدير ، يحفّان بمدينة الحيرة التى اشتهرت بصحة هوائها النقيّ لقربها من هواء البرية النقى ، وفى الحيرة تكونت مملكة المناذرة عام ٢٦٨ م وارتبطت مع

الساسانيين بحلف يدفعون به عادية الرومان عن بنى ساسان . حكم فى هذه المملكة اثنان وعشرون ملكاً منحوا فى مدة حكمهم الحضارة العربية مجداً وثراء عسكرياً وتجارياً وثقافياً ، ووقف الشعراء على باب الملوك ، واقتعدت الثقافة فيها مكاناً رفيعاً ، مما جعل ملوك الساسانيين يتركون أولادهم للمناذرة يتأدبون فى ظلهم ، فيتعلمون الكتابة والقراءة والأدب ، ويتدربون على الرماية والصيد والفروسية ، وكان المناذرة يعارضون الفرس فى نشر المبادىء المتطرفة ، وبذلك اختلف المنذر بن ماء السماء مع ملك الفرس قباذ فى شأن مبدأ المزدكية ، ذلك المذهب الإباحى الذى لا يتفق مع المروءة العربية ، وكان العرب لا يزوجون بناتهم لأبناء الفرس فلما طلب كسرى أبرويز يد بنات النعمان بن المنذر لأبنائه أبىَ النعمان ، فوقعت جراء ذلك واقعة ذى قار التى انتصف فيها العرب من العجم .

لقد كان المناذرة يحمون قوافل الساسانيين المثقلة بالبضائع المتجهة إلى قلب الجزيرة غدواً ورواحاً وكان المناذرة على صلة مع الغساسنة حرباً وسلماً وفى أسواق مكة حيث تجتمع وفود العرب وبهذا الامتزاج تزاوجت الأفكار فى مشارف الشام وسهول الرافدين ووديان الحجاز تعبر عن لغة بفصاحة وبناء مكتمل .

* البادية :

كان نصيب اللغة فى نموها بالبادية أوفر وحظها من أيّة لهجة عربية ، فإن انبساط الصحراء ووضوح مشاهد الطبيعة مَنَحا خيالَ الشاعر العربى قدرة فائقة على التصور والإبداع .

أنه ينثر مناظرها ، بين يديه و ويعرض مشاهد الكون على خياله فينفذ إلى دقائق أسرارها ، يقرأها فى القمر ليلة البدر والشمس فى شروقها وضحاها وانحدارها فى أصيلها وفى تلألؤ النجم بمسيره وثبوته فى كبد السماء ، وفى النهر المنبسط حين يداعب صفحته النسيمُ العليل ، ويحسها فى الريح الصرصر والبرق الخاطف والرعد الهادر ، والمزنة الجهام المتهادية فى أجواء الفضاء ، ويتفرّس وجوه الحيوان ، فيبصر ما يريده من طبائعها فى الأسد الخادر والمتوثب ، والنمر المنكمش ليفترس ، والذئب الجائع الذى تتقاذفه الشعاب ، والثعلب الماكر ، والحمل الوديع ، والنسر الكاسر ، والحمامة الأليفة ، ويتوسم وجه الإنسان فيقرأ فى عيون العذارى

عـــــواطف الحب والإخـــــلاص والأنوثة فى ابتسامتهن المشرقة ، والأمومة فى قسمات وجوههن وأساريرها ، ويتوسم وجوه بنى آدم المختلفة ، فيصل إلى أعماقها ، ويعرف فيها مكامن الشر والخير والحب والبغض والحقد والحسد والكرم والبخل والشجاعة والجبن ، والانتقام ، والحلم والوفاء والغدر والقوة والرحمة واللين والشدة والإثرة والإيثار ، ويرى تعبئة الجيوش فى اصطفاف الخيول تَعْلِك اللجم عليها الكماة ، والرماح مشرعة بأيدى الفرسان ، والسيوف مصلتة يختلط لألاؤها بأشعة الشمس ، والعربى فوق ذلك ذكىٌ نافذ البصيرة ، يمارس القيافة والعيافة وينسبُ الرجلَ إلى أهله من آثار أقدامه ومن قسمات وجهه، وقد حملت لغة العرب فى كلماتها المترعة بالمعانى كلمة (المروءة) تلك الكلمة التى تدل بكل معانيها على الرجولة التى تنطوى فى ثناياها معانى الشجاعة والكرم والنجدة والعفو عند المقدرة والتواضع والمشورة ، ولعل كلمة الفروسية التى نبطت فى أوربا فى القرون الوسطى حملت هذه المعانى أيضا .

كل هذه المعانى وأكثر منها حملها شعر البادية فى بحوره وأوزانه وجرس إنشاده ، من فخر ومديح وغزل وشراب ورثاء وهجاء ووصف وحكمة وأراجيز للطرد والصيد ، ولم تنطو صفحة شعر البادية بظهور الإسلام وظل محافظاً على طابعة يغذى اللغة بفنون الخيال والوصف .

* مكة والمدينة :

وفى الربع الأول من القرن السابع الميلادى ومستهل التأريخ الهجرى أخذت مكة على عاتقها فتح أبواب الحضارة الإنسانية عن عهد جديد من أطوار التفكير والإبداع ، بدأته بالتأكيد على تعلم القراءة والكتابة لإقدار الإنسان على دقة التعبير عن التفكير .

فكان المستهل أول سورة نزلت من السماء : «اقرأ باسْم ربك الذى خلَق ، خَلَق الانسانَ من عَلَق ، اقرأ وربّك الأكرمُ الذى عَلّم بالقَلَم علّم الانسان ما لم يَعْلم » فإن القراءة والكتابة مفتاح الحضارة والمعرفة ، والوسيلة السليمة لبناء العقل وتهذيب الغريزة .

وبدأت آيات القرآن ترفل بالإعجاز وتمنح اللغة العربية جمالاً وجلالاً بأسلوب جزل وتصوير أخاذٍ رائع ، وأمثال يحدوها منطق مُقْنع تأخذ بيد القارىء والسامع إلى أفق من التفكير الواسع ، جادلَ وفود العرب وبلغاءَهم

بالتى هى أحسن ، فقالوا إنه حديث مفترى وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فلم يأتوا بسورة واحدة ولم يحاولوا وأكثر ما قالوه فى القرآن ما جاء على لسان الوليد بن المغيرة أعلم القوم بالشعر والرجز والقصيد : قال حين سأله قومه عن مكانة القرآن فى البلاغة والإعجاز : (والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليحطم ما تحته) . أعجزهم بيانه فانبهروا ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً . كان القرآن معجزة النبوة بين قوم أعظم ما عندهم بلاغة القول وصحة التعبير عن الرأى وناهيك بلغة تكون هى المعجزة ، ففيها عرضت مادة الشريعة وأهداف الرسالة المحمدية . وبها صح التعبير عن الفكر الإسلامى .

أخذت آيات القرآن تنزل تباعاً ، فالآيات التى اكتمل نزولها بمكة اتخذت سبيل الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك والتنديد بالأوثان المنحوتة من الحجر ، تبشر وتنذر وترتفع بالإنسان من ذلّة الوثنية التى انحدرت فى أصلاب الزمن فى عقول الأمم إلى عزّة الإيمان بالواحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وتهيئة النفوس للسموّ والرفعة ، وتوجيه الإنسان للنظر فى مشاهد الكون وفى خلق السموات والأرض فى تفاعل الطبيعة والإنشاء والتكوين : « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسَفاً ، فَتَرىَ الودْقَ يخرج من خِلاله ، فاذا أصَابَ به منْ يشاء مِن عباده إذا هم يستبشرون » ومعنى الاستبشار هنا استقبال الخير فيما تبعثه الطبيعة الممثل فى قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فَسَلكهُ ينابيعَ فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يبهج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً . »

إن فى هذه الآيات صوراً من مشاهد الكون، فيها خيال وفيها تفكير يحدوه منطق يؤدى إلى التسليم بأن هناك موجداً لهذا الكون بارىء ومصور وفى هذه الآيات عرض رائع بأسلوب جميل ولغة سهلة وتعبير واضح .

واتخذت أكثر الآيات المدنية سبيلها فى التشريع ، فحددت بذلك أركان العبادات ، وشرعت حقوق الأسرة فى الميراث والزواج والطلاق وأحكام العتق ، ووضعت قواعد المعاملات وحرم شرب الخمر ولعب القمار وتعاطى الربا والزنا وقتل النفس ، ووضعت الأحكام المتعلقة بالحرب والسلم . وبأروع الأساليب بث القرآن روح المحبة بين الآباء والأبناء وبين الناس وصفوة القول : وضع

القرآن نظام الحكم لأمة ذات مجتمع كريم ثلاثة وعشرون عاماً والوحى ينزل بمنهاج مرتب، والنبى (ص) يحدث ويبلغ ، كان تبليغه وحياً ، وكلامه سنة ، وفعله قدوة . فى غضون ثلاثة وعشرين عاماً حملت اللغة العربية ثقافة أمة بدستور ذى بيان معجز وثروة لغوية تستوعب ما تنتجه مطرقة الصانع وما يبدعه خيال الأديب . إنه منهج جامعة تخرج فيها الخلفاء ، وأمراء الجيوش ، وولاة الأمصار والقضاة والفقهاء والمشرعون والمحدثون ، وناهيك فى تنويه القرآن بالمتخرجين من هذه الجامعة بقوله تعالى : «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفارِ رُحَماء بينهم ، تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطآه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين أمنوا منهم مغفرةً وأجراً عظيماً » هؤلاء هم الذين خرّجتهم جامعة القرآن ، هم الرعيل الأول ، الذين وضعوا قواعد الحضارة العربية الإسلامية ، هم الذين شرحوا معانى لغة القرآن وأغنوا اللغة بالمصطلحات ، والمفردات اشتقاقاً وتصريفاً . هم الذين حرروا الهلال الخصيب ، وحطموا أصنام الرومان ، واجتثوا وثنية الفرس فكفكف الروم أذيالهم من مشارف الشام فى واقعة اليرموك ، وكفكف الفرس أذيالهم من سهول الرافدين فى واقعة القادسية وفى ظلالهم تدفقت الأمة العربية إلى الهلال الخصيب ، عدها المؤرخون أكبر موجة عربية إسلامية فى تأريخ الهجرات العربية .

مصّر عمر بن الخطاب الكوفة والبصرة ، وفتح المربد لابتَيْه للثقافة العربية فانحدر إليهما أجلّة العلماء . فنزل البصرة مالك بن أنس ، فى صدره القرآن وفى ذاكرته مائة وثلاثون حديثاً ، ونزلها قيس بن عاصم الذى قال عنه النبى (ص) : هذا سيد أهل الوبر : أى سيد أهل البادية ،كان يفقّه الناس باللغة ، ونزل الكوفة ثلثمائه من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر ، ونزلها سعد بن أبى وقاص والياً ومعلماً ، ونزلها على بن أبى طالب خليفة ومعلماً ، هؤلاء وأمثالهم ثقفتهم المدينة من بعد ما تخرجوا فى مدرسة النبوة ، وتفرقوا

على الأمصار مشرّعين ومعلمين ، وكانت أروقة المساجد لهم بمثابة قاعات الدرس فى الكليات الجامعية فيها تصطنع الشخصية وتتكون المهارة .

المربد :

وعلى بعد ثلاثة أميال من البصرة تأسس المربد ، وهو فى اللغة موضع التمر أو الموضع الذى تحبس فيه الماشية أخذ مكانة عكاظ وصار مركزاً للفكر العربى . فانحدر إليه أبناء البادية تجاراً وعلماءً فتألفت من علمائهم حلقات المناشدة والمفاخرة ومجالس العلم والأدب ، فكان الرواة يؤمونه لاستقبال أخبار العرب وأشعارهم ، وكان الشعراء يأتون ومعهم زواتهم للمناضلة والمناشدة ، وكانت المساجلة أمام الجمهور الذى له الحكمُ على النفوذ والغَلَبة . وكان الرواة يقطعون الفيافى ويتوغلون فى أعماق البادية يتحرون الصحة والفصاحة ، ويجمعون الوثائق ، ويشترطون على حملتها صحة الرواية . وكان الشعراء يلقون أشعارهم فى ساحة المربد أو صحن المسجد ، وعنهم يُسَجّلُ الشعر أو يحفظ . وعرب البادية يتدفقون على البصرة يتكسبون بمعارفهم ويفقهون الناس باللغة : بمشتقاتها ومترادفها ، ويدربونهم على الفصاحة وصحة النطق . ومن شيوخ البادية شيخ يدعى أبا الجاموس ثور بن يزيد كان يفد إلى البصرة فيأخذ الناس عنه اللغة .

ومن علماء اللغة أبو مالك عمرو بن كركرة الذى يقال عنه إنه كان يحفظ اللغة كلها أعنى أنه كان معجماً حياً وله من الكتب : كتاب « الخيل وكتاب خَلْق الانسان » ، وربيعة البصرى الراوية الشاعر الذى له من الكتب كتاب « ما قيل فى الخَيات » ، وكتاب « حنين الأبل إلى الأوطان » ، وظلت البصرة متصلة بالبادية ، فتخرج على يد شيوخها علماء اللغة والفقه والقرآن والحديث فصنعوا جيلاً متفهماً ، كان أبرزهم عمرو بن العلاء عالم البصرة ، درس على شيوخ مكة والمدينة والبصرة والكوفة ، وهو أحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم قراءة القرآن .

ومن الأجلاء الذين وضعوا أصول اللغة التى حملت الثقافة العربية ، العالم النابغة الخليل بن أحمد ، واضع علم النحو فى صورته الأخيرة ، أخذه عنه تلميذه سيبويه ووضعه فى مصنّفه باسم « الكتاب » ، والخليل بن أحمد (ت ١٧٥ هـ - ٧٨٦ م) وضع معجم العين مرتباً

ترتيباً منطقياً يوائم طبيعة اللغة العربية فى مخارجها ، فبدأ بالعين لأنه وجد مخرج الكلام من الحلق ، فجاء ترتيب الحروف الهجائية وفق ما يلى : ع ، ح ، هـ ، خ ، الخ والخليل هو الذى سجل تفعيلات بحور الشعر ، وظل هذا العالم الجليل يعلم الناس حتى تخرج فى حلقات دروسه آلاف الطلاب . ومن علماء اللغة الأصمعى الذى رَوى دواوين كثيرة لعدد من الشعراء ، روى ديوان امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وفى أصمعياته تكمن ثروة لغوية هائلة . وجمع المفضل الظبى فى مفضلياته أصدق أشعار العرب . ومن علماء الكوفة الذين وهبوا اللغة العربية ثروة كبيرة أبو عمرو الشيبانى (ت ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م) حمل هذا الفاضل نفسه إلى البادية يتلقى عن فصحائها وشعرائها أشعار العرب وفصيح اللغة وغريبها ، فقيل عنه : إنه كتب لنا أشعار ثمانين قبيلة .

فإذا نَعِمتْ شواطىء الرافدين بتمصير الكوفة والبصرة وتأسيس المربد ، فإن مشارف الشام كانت عامرة بالمدن الكبيرة . ولم يؤسس الأمويون فيها غير مدينة الرملة ، وانصرفوا إلى بناء المساجد لتكون مقراً لحلقات الدرس وعبادة الرب ، فبنى عبد الملك بن مروان قبّة الصخرة، وبالقرب منها أقام المسجد الأقصى، وبنى الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ م) المسجد الأموى فى دمشق ، كما أنشأ الكثير من المساجد والمدارس والمستشفيات ، وابتنى الأمويون القصور فى بطاح البادية ، أما المعلمون فهم حفظة القرآن والحديث ورواة اللغة من الذين كان يبعثهم عمر بن الخطاب إلى الأمصار ليفقهوا الناس فى الدين ، وكان الأمويون يبعثون أبناءهم إلى البادية ليتأدبوا على شيوخ اللغة ، وفى خلال هذه الفترة اهتم معاوية بكتابة التأريخ بغية التثبت من نسب كل عربى مسلم لتعيين العطاء المفروض من بيت المال ومثل ذلك فعل زياد بن أبى سفيان فى البصرة ، وفى عهد عمر بن عبد العزيز نقلت معاهد الطب والفلسفة والعلوم من الإسكندرية إلى انطاكية ، وظفرت العلوم بعناية خاصة حتى قيل إن أول من أمر بنقل الكيمياء والطب والتنجيم من اليونانية والقبطية إلى العربية كان خالد بن يزيد (٧٠٤ - ٧٠٨ م) .

وصفوة القول إن اللغة العربية مرت فى الوجود الحضارى فى مطاوى الزمن ترفل

بالفخار وأمجاد العرب ؛ حملت مصطلحات العلوم والفنون والآداب والفلسفة فى حضارات السومريين ، والأكديين والعيلاميين والبابليين والعموريين والآشوريين والكنعانيين والفنيقيين، والمصريين ، وألقت عصا الترحال بين الرومان والفرس الذين عاشوا فى الهلال الخصيب مرتبطين مع ملوك الأنباط وملوك تدمر والغساسنة والمناذرة فنعموا بما جاءت به من عقل ناضج وتعبير واضح ورائع فى العلم والفن والأدب فاقتبسوا وأضافوا ، ثم انحدرت لتستقبل ، الفصاحة والبيان فى عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وعادت إلى الجزيرة الأم مثقلة بالعبارة المنسّقة والمصطلح الواضح والمفرد المحدد للمعنى . وفى أقل من عقد من عقود الزمن احتضنها القرآن بين يديه يتحداها فى إعجازها وفصاحتها ، فأقبلت عليه طائعة مبهورة ، يدللها ويهذبها ويكسوها جمالاً وجلالاً ، وجزالة ورقة ، ويمنحها تعبيراً سلساً ، ثم زانها بالمعرفة والفكر والعقيدة السليمة والإيمان ، وارتفع بأمة الضاد من ذلة الأصنام إلى عزّة الديان فنمت ونضجت وحملت شريعة مكتملة وبدأت تعرب عن التفكير فى الخلق والإيجاد ومشاهد الكون وتمخضت عن منهج واضح لتكوين المجتمع الفاضل . انحدرت اللغة إلى المربد ترفل بعقيدة سماوية وتحمل نتاج عقل الأمة العربية فى الحاضر والبادية ، وفى المربد والبصرة والكوفة فى هذه الجامعات الثلاث : برز العالم والأديب والكاتب ، ووضعت الكتب والمعاجم ، وصارت اللغة وعاء العقل وغذاء الروح .

بغداد وقرطبة :

جاءت إلى بغداد ثروة تتهادى بها الفصحى بوعاء واسع يجمع فى أعماقه معانى القرآن والحديث فى الفقه والأدب ونظام المجتمع ونتاج لغة البادية فى وصفها الدقيق لمسمّيات كائناتها المنثورة فى صفحة الطبيعة وخيال شعرائها الذى يجمع بين معانى الحاضرة والبادية ومصطلحات العلوم المتحررة من مدارس الأكديين والبابليين والعموريين والآشوريين والكنعانيين والفنيقين والأنباط وملوك تدمر والغساسنة والمناذرة . جاءت العربية رحبة الصدر عريضة الأفق سخيّة ، مستعدة لأن تقدم للجذوة الفكرية التى أذكاها العباسيون كلّ ما يريدون من مفرد ومصطلح يلبس المعانى الجديدة . وبذلك أصبحت العربية خطباً تدور حوله المعارف ، وصار من اللازم

فهم أسرارها فى فقهها ، ومشتقاتها ومفرداتها وأسلوبها ، فاندفع أبناء الفرس والنصارى من أسلم منهم ومن لم يسلم إلى دراستها والتفقة فيها وانكبوا على رواية الشعر وحفظه ودراسة القرآن والحديث ، وتتبع أخبار العرب الأوائل وتقصىّ علومهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ولم يمض النصف الأول من القرن الهجرى الثانى حتى كانت عاصمة العباسيين تموج بعلماء العرب وفصحائهم والمترجمين من العرب وغيرهم بجميع الفروع والاختصاصات .

وأقدم العلماء والأدباء يدّرسون أبناء الخلفاء والأمراء وقادة الجيش فى بيوتهم وفتحت المدارس لأبناء العامة ، وكانت المساجد أمكنة للعبادة والدراسات العليا ، ويجلس الأستاذ مستنداً إلى الاسطوانة فيتحلّق حوله الفتيان وكان لكل حلقة فرع يدّرس فيها ، وقد يجمع المرء إلى تخصصه فروعاً كثيرة فيطلق عليه وعلى أمثاله : المسجديين لعلوكعبهم وحسن حديثهم فى فنون المعرفة . وكان الخلفاء والأمراء والقادة وسراة الناس يغدقون الهبات على العلماء ، فكان المأمون وهّاباً كثير العطاء فازدهرت المعرفة وزادها انفتاح مجالس المأمون انطلاقاً فى حرية الرأى والكلام ، وكان المأمون نفسه مثقفاً ثقافة عالية ، فجعل من مجلسه ندوة علمية تكاد تشبه عكاظ والمربد ، فَحذِقَ الكثيرون صنعةَ الجدل ومعرفة توجيه الرأى عند إبدائه . أذكى العباسيون جَذْوةَ المعرفة ، فأقبل المترجمون على نقل كتب الأوائل ، ويعتبر أبو زيد حنين ابن إسحق (٨٠٩ - ٩٧٣) من أوائل المترجمين وينتمى إلى مدرسة جنديسابور أقامه المأمون قيماً على بيت الحكمة ، وهى مؤسسة تشتمل على مكتبة ومتحف ومعهد للترجمة وكان يجيد اليونانية فينقل عنها إلى السريانية ثم إلى العربية ويقال : إن المأمون رسم لإسحق على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه ذهباً .

قدمت بغداد للحضارة العربية الإسلامية عملاً مجيداً فى التشريع والأدب والحكمة والفكر الاسلامى ، فبرع فيها أئمة المذاهب الإسلامية فى الفقه ، والأدباء والشعراء والكتاب والمترجمون والقضاة ، وغمال الإدارة فى الأقاليم ، وخطّت للعالم وضع أول جامعة عربية فى تأسيس المدرسة النظاميةواغترفت قرطبة من هذا المعين الذى غرفت منه بغداد ، وتلألأ نجمها فى ظلّ عبد الرحمن

الثانى (٨٢١ - ٨٥٢) ، وتبوأت مركزها العلمى فى عهد الخليفة الأول عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) ، الذى اعتبر الحامى الأول للعلوم والآداب ، وهو صنو المأمون فى الاندفاع إلى بناء الحضارة .

عُنِىَ المأمون بالكتاب ودور الحكمة وإكرام العلماء وَعُنِىَ الحكم بالعالم والكتاب وتهيئة الوسائل لاصطناع المهارات ، وكان يرسل الوكلاء عنه إلى أصقاع العالم لابتياع الكتب واستنساخها حتى جمع فى مكتبته أربعمائة ألف مجلد وضعها بين يدى الدارسين والباحثين والمترجمين . وكان وزيره محمد بن عامر الملقب (بالمنصور) أقوى ساعد له فى تمكين الثقافة بأن تستند إلى الصحة والدقة فى هذه البيئة النشطة . نشطت معاهد العلم ومجالس الأدب ، وفى أحضانها تكونت المهارات والقيادات فى فنون العلم والمعرفة : فى التشريع والطب والصيدلة وعلم الحيوان والنبات والرياضيات والفلك والهندسة والفلسفة والأدب والتأريخ والجغرافية ، واقتعد علم التشريح مكانة رفيعة .

ومن هذه القيادات الماهرة أبو محمد بن على بن حزم القرطبى (٩٩٢ - ١٠٦٤) المؤلف والعالم ، فقد بلغ ما كتبه أربعمائة مجلد تشتمل على أربعة وعشرين الف صفحة ومن روائع كتبه ما جاء فى الأديان الثلاثة المسيحية واليهودية والمجوسية ، وعرض الدين الإسلامى عرضاً شيقاً ، وكتب فى المذاهب الأربعة الإسلامية والفروع المتفرعة عنها ، ومن المتصوفة أبو بكر محى الدين المعروف بابن عربى اشتهر فى كتابه « الفتوحات المكية » الذى يعتبر من المصادر الأساسية التى أثرت فى كتاب الكوميدية الآلهية التى كتبها دانتى ومن أجلّة العلماء فى الجغرافية أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسى القرطبى ولد فى سبتة (١١٠٠م) ، واتسمت خرائطه بالرسم البالغ فى الدقة . وقد ساعد هذا العالم فى نقل كنوز اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية .

ومن أكبر الفلاسفة أثراً فى الثقافة ابن باجه ولد فى سرقسطة قبل (١١٠٦) فحمل اللغة العربية فكراً نيّراً فى الفلسفة وأثر تأثيراً بالغاً فى فلسفة ابن رشد ، اشتغل هذا العبقرى العربى فى علم الفلك والطب والهندسة وفى عهده ولد ابن طفيل الفيلسوف الذى اشتهر بكتابه (حىّ بن يقطان) ومن

أعظم فلاسفة العرب الأندلسيين وأبعدهم ذكراً ابن رشد محمد بن أحمد ولد فى قرطبة سنه (١١٢٦) أشهر مؤلفاته الموسوعة الطبية المعروفة بعنوان (الكليات فى الطب) عند الغرب وعند العرب اشتهر بكتابه « تهافت التهافت » رداً على الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » .

وابن زهر المولود فى اشبيلية (بين ١٠٩١ - ١٠٩٤ م) هو أبو مروان عبد الملك بن أبى العلاء زُهْر أعظم طبيب عربى بعد الرازى ، ألف وكتب وبقيت لنا من أشهر كتبه : كتاب « التيسير فى المداواة والتدبير » وكتاب « الأغذية » .

وصفوة القول استطاعت بغداد وقرطبة أن تلتقيا وتقدما للعلم حضارة عربية إسلامية صنعتها جهود عربية ، فى قرون ازدهر بها الشرق العربى فى شبه الجزيرة والهلال الخصيب والغرب العربى فى شبه جزيرة الأندلس ، فأصبحت قرطبة المنهل العذب لأبناء الغرب فى الدراسة والترجمة وساعدتها صقلية . وجاء الصليبيون إلى الشرق فوجدوا نوراً وهداية وعادوا إلى بلادهم بعد أن دمروا وانهزموا فلم يجدوا إلا ضلالاً وعماية وكتيبات تختبىء فى الأديرة ، ومن هذا المنطلق دق الجرس فتيقظ الغرب .

ظلت أوربا تتخبط فى الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء بعد الغزوات التيتونية وبسببها ، ثم أفاقت فى أيام شارلمان ، ثم انتكست ثم بدأت فى مفتتح الألف الثانية ، طلائع نهضة فيها قبس ضئيل يضئ أحياناً ويخبو أحياناً أخرى ، وفى غمرة هذه الحياة الضالة نبطت خرافات وأساطير وأبحاث تافهة ، لم يستطع المتعالمون الجدد تصنيفها ، ولقد أفاقوا من نوم عميق ، فلما فتحوا عيونهم غشيت فلم تر شيئاً فكان مثلهم كمثل أصحاب الكهف والرقيم ، لقد كان هؤلاء الراقدون المستيقضون فى حاجة شديدة إلى رياضة عقلية تكسبهم قدرة على الابتكار . كان الكتابُ مفقوداً وبالأحرى متوارياً فى الديارات (الأدْيَرَة) المنفردة البعيدة عن الطرق التى تسلكها الجيوش ، وأكثر الكتب وجوداً تلك التى تعنى بالقضايا الدينية وتواريخ القديسين ، أما المجموعات الأخرى المكتوبة باللاتينية فإن قسماً منها يفصح عن صور فقيرة فى تأريخ العلم الغابر، وأخرى تَمُتُّ إلى تلك المكتوبة بلغة غير سهلة فى مجتمع يسوده الجهل ، الذى أمعن طور الإقطاع والفروسية فى تعميقه

وكان لصكوك الغفران أثر كبير فى انتشار الفساد ، إذ يكفى لمرتكب الخطيئة شراء صك، أو صكين منها للإعفاء من عقاب الكنيسة وعقاب الآخرة .

تلمل الغرب من رقدته على شعاع ضاء سناه من بغداد وقرطبة ، وبدأ اتصال العالم المسيحى بالعالم العربى الإسلامى من جهات ثلاث : أهمها وأولها قرطبة ، حيث تتلمذ الغرب على أيدى العرب ، وثانيها ، الاتصالات التى وجدت بصقلية ، وثالثها الاتصالات التى أنشأها الصليبيون الذين قصدوا المشرق بنية فتح بيت المقدس ، وبهذه الاتصالات أقبلوا على ثمار بغداد وقرطبة للاغتراف من ينابيع العلم الغزير ومن أوائل المسيحيين الذين قاموا برحلة إلى الأندلس (GERBERT) (جربرت) المولود فى أوخرى سنة ٩٣٠ م وهو الذى تقلد البابوية باسم سلفستر الثانى ، أول عالم مسيحى عرفَ أوربا بالأرقام العربية الأندلسية ، وتلاحقت أفواج المتعلمين والمترجمين ، ونقلت الكتب العربية والشروح التى وضعها العرب على كتب العلوم الإغريقية مع التعليقات المبتكرة ، وتَمَّ نقل الكثير من كتب الأدب والفلسفة والطب والصيدلة والرياضيات والهندسة ، حتى قيل إن (دانتى) أحدَ باعثى النهضة الأوربية تأثر بالأدب العربى ، وأن كتاب « الفتوحات المكيّة » لابن عربى ، هو الذى ألهمه تصوير الشئون الأخروية فى « الكوميديا الآلهية » ، وقد أمعن الغربيون فى الترجمة والنقل عن علماء العرب ، فلم يبق فن أو علم إلا مروا به وأخذوا منه حتى أنهم ترجموا كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين .

التفتت أوربا إلى إبداع الفكر العربى ، فبدأت طلائع نهضة عارمة فى أواخر القرن الثالث عشر ومفتتح القرن الرابع عشر بدأت بالحث على إتقان اللغة الإغريقية والرمانية والتفقه فى اشتقاقاتها ومصطلحاتها ، للتعرف على ما فى أدب الإغريق من ثروة فكرية ، ولإقدار الطالب على التعبير عما يراه ويشعر به ، لاعتقادهم أن من يملك زمام اللغة يملك صياغة الفكرة وإخراجها إلى الوجود الخارجى لتساعد على الإبداع وكان من أوائل الرواد لهذه اليقظة الفكرية بَتْرَارك ودانتى فى ربوع إيطاليا ، فانطلقت أوربا تبحث وتدرس وتضع المناهج والكتب وإيجاد المعلم ، فوضعت قواعد الإيجاد فى القرنين الرابع عشر

والخامس عشر ، وبلغت الذروة فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، فأدهشت العالم فى الفن والعلم والفلسفة والأدب حتى أصبحت هذه الكرة الصغيرة التى نعيش عليها تطمع فى اخضاع ضِخامِ الكرات الدائرة فى أجواز الفضاء .

منيت الحضارة العربية الإسلامية بكارثتين مدمرتين : كارثة المغول الزاحفين من الشرق وكارثة الصليبيين الزاحفين على الأندلس . زحف قائد المغول هولاكو على بغداد ، وبعد حصار دام سبعة عشر يوماً وبحيلة غادرة سلّمَ ابن العلقمى وزير الخليفة المستعصم مفاتيح الأبواب فى اليوم الثامن والعشرين من شهر محرم الحرام لعام (٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) فانحدر إليها المغول فقتلوا الخليفة واستأصلوا أهل بيته إلا ولده الصغير وأعملوا السيف فى أبناء بنى العباس وأهل المدينة ، لا يستثنون امرأة ، ولا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ، وهدموا المساجد وانتزعوا كتب العلم من بيوت الحكمة وألقوها فى دجلة ، فاسودت عين الدنيا ، ولبست دجلة ثوب الحزن مصبوغاً بالحبر الأسود ، وعادت زهرة بغداد الناضرة غثاءً أحوى ، وأسدل الستار على قوة الدنيا والدين . أما الصليبيون فى الأندلس فقد أخذوا المسلمين بالسيف والنار ودمروا كل ما مروا به مما يَمُتّ إلى الحضارة العربية الإسلامية ، وفى اضطراب فى الشرق والأندلس فى الغرب ، أرزّ العلماء والأدباء إلى القاهرة التى حفظها الله فردت المغول ودحرت الصليبيين ، وأغنى ما بقى من الثروة الثقافية « القرآن » مصدر التشريع وتكوين الحضارة وينبوع الأدب العربى، أقبل العلماء إلى القاهرة من كل صوب فى البلاد العربية بعد هاتين الكارثتين ، فأخذت القاهرة زعامة الفكر العربى تعينها دمشق ، واستأثر الأزهر بالمكانة الأولى بين مساجد مصر ومعاهدها العلمية . وصل إليه جمهرة من العلماء وتصدروا بعضاً من حلقه الدراسية وألقوا دروسهم فى الحديث والتفسير والفلسفة والمنطق والبيان والنحو . حفظت القاهرة تراث العربية الذى خلفه لنا الأولون ، وحماه صلاح الدين الأيوبى من الانحراف الفاطمى واستلمه المماليك ، ونشأ عهد زاهر أجدر به أن يسمى عهد الموسوعات العلمية التى ظهر منها كتاب « صبح الأعشى » ، ومعجم « لسان العرب » ونهايه الأدب فى فنون الأدب « ومسالك الأبصار » ، « وحياة الحيوان » للدميرى ومؤلفات السيوطى.

وغير ذلك ، واستمرت الحركة الفكرية تسير ببطىء ونشأ الكتاب والعلماء فى الطب والرياضة والطبيعة وفنون الحرب والفروسية ، وكانت القاهرة قد حظيت بالمصلح الكبير ابن تيمية الذى درس فى الجامع الأزهر والذى أيقظ النفوس من رقودها وأزال غشاء الخرافات والأساطير عن جوهر الدين الإسلامى والفكر العربى ، فتبنى تعاليمه من بعده محمد بن عبد الوهاب ومحمد عبده وسار على نهجها جمال الدين الأفغانى . ومن الأساتذة المفكرين الذين علموا فى الأزهر ابن خلدون مؤلف المقدمة المشهورة التى ترجمت إلى اللغات الغربية الحيّة كلها ، ويعده علماء الغرب أول مفكر عالم وضع علم الاجتماع ، وفى ٢٤ من أغسطس سنة ١٥١٦ دخل السلطان سليم العثمانى القاهرة وانتقلت بدخوله الخلافة من زمام قريش إلى يد الأتراك العثمانيين ، وأصبح سلطان الأتراك يمتد على بلاد العرب من حدود مراكش غرباً ويستمر فى سلسلة منتظمة على الشواطىء الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط حتى يصل إلى الأحمر ، ويستقر على الخليج العربى ، فيشمل فى المغرب العربى : تونس وطرابلس الغرب والجزائر ، وفى المشرق العربى : سوريا والعراق والحجاز ونجد واليمن . وامتد سلطانهم فى البلقان حتى وصل إلى فينا فى غرب اوربا ولم يكن للثقافة مركز محدود ما عدا ما كان فى الأزهر وأما الأقاليم الأخرى فقد كان لكل مسجد مدرس ومكتبة ، يرجع إليها الطلاب ويعيشون على نفقة الأوقاف المحبوسة عليهم .

وفى الربع الأخير من القرن السابع عشر ظهر فى نجد محمد بن عبد الوهاب : أدرك سرّ رقود الفكر العربى وعزاه إلى سببين اثنين: الأول شيوع الأساطير والخرافات بين الناس ، وتعلقهم بالأرواح والأشباح والشجر والحجر ، واتخاذها وسيلة للتداوى من العلل ، وبعبارة أوضح انصراف عن التوحيد إلى الوثنية ، والسبب الثانى الركود الفكرى باعتماد الناس على التقليد الذى أخرهم عن الإبداع والابتكار ، فدعا إلى التوحيد وإلى إطلاق باب الاجتهاد على مصراعيه لكل مقتدر مستوف للشروط وجعل الحجة الوحيدة هى القرآن والسنة فمنهما تستنبط الأحكام وصحبت دعوته حركة سياسية وعسكرية متطرفة مما أخاف مقرّ الخلافة ، فأثارت حوله دعاية رمته

بالزندقة والخروج على الخليفة ، وأن حركته تؤدى إلى قيام دولة عربية تناوىء الخلافة التركية . ومهما يكن فإن فى هذه الحركة يقظة فكرية وسياسية نبهت الناس إلى شىء لم يألفوه .

وفى مستهل القرن التاسع عشر وصلت حملة نابليون (١٨٠١ م) إلى مصر طمعاً فى الثروة وفى الاستراتيجية ، ورافق هذه الحملة حملة علمية جاء بها نابليون حيث أسس مجمعاً علمياً على غرار المجمع العلمى الفرنسى ، يهدف إلى البحث والدراسة ويتألف من ثمانية وأربعين عضواً ، فى أربعة أقسام : قسم الرياضيات وقسم الطبيعيات وقسم الآداب والفنون وقسم للاقتصاد السياسى ، ويعتبر مجمعاً استشارياً استغلالياً وغرض الفرنسيين الوقوع على تراث الفكر العربى الإسلامى واستثمار كنوز المواد الأولية والاستيلاء على منطقة استراتيجية على أسس علمية لتحقيق الأهداف فى مقاومة النفوذ البريطانى ، فأنشأ نابليون فى مصر مرصداً ومتحفاً ومختبراً ، وأقام مسرحاً لتمثيل الروايات ، وأسس مطبعة تطبع بالعربية والفرنسية واتخذ المطبعة العربية أداة لنشر بياناته ، وأصلح دار الصناعة الموجودة قبلاً ، وأنشأ مصانع الملابس والقبعات والدباغة والتجارة و الميكانيك ، وجدت مصر بمجىء نابليون شيئا جديداً ، ووجدوا فى جنوده قسوة بما ارتكبوه فى نهب القرىَ والسلب وسفك الدماء ولقى الفرنسيون مقاومة عنيفة فخرجوا من مصر وفى قلوب المصريين منهم جروح لا تندمل .

وفى مستهل القرن التاسع عشر وفى ١٣ من مارس عام ١٨٠٥ تولى محمد على باشا ولاية مصر بفرمان من السلطان فشرع فى تنظيمها وأنشأ جهازاً إدارياً محكماً يليق بدولة حديثة ذات كيان ، وفى غمرة اليقظة الفكرية التى عمّت العالم تفتحت الآفاق أمام مصر فاتجهت إلى ناحيتين : المعرفة والقوة . واتخذ محمد على من الأزهر معيناً لتكوين القيادات العلمية والمهارات الفنية ، واستعان بالغرب فى استعارة العلماء فانشأ المدارس العالية التى أصبحت موطناً للمختصين الوافدين من الغرب والمتعلمين من أبناء مصر، وأخذ يوالى البعوث ، فكانت البعثة الأولى من أربعين طالباً بمختلف الموضوعات ، وقد أحْصيت البعثات فكانت إحدى عشرة بعثة ، ولا ريب فإنها كانت نواة النهضة الحديثة فى

يقظة الشرق العربى . ولم يجد الجميع بدأ من الانكباب على دراسة اللغات الحية والشروع فى نقل آثار الغرب إلى اللغتين العربية والتركية فى مصر ولهذا أسست مدرسة الألسن التى أشرف عليها رفاعة الطهطاوى . نقل هذا العالم وهو يدرس فى باريس كثيراً عن أمهات الكتب الأدبية وتعاون مع تلامذته فى مدرسة الألسن فنقلوا كثيراً من مآثر الغرب إلى لغة الضاد فى الجغرافية والتأريخ والاجتماع والمنطق ومبادىء الهندسة ، ووضع كتباً فى التربية وقواعد النحو وفى الفقه على المذاهب الأربعة . واشترك مع اساتذة مدرسة الألسن كثير من المستشرقين الذين يعرفون العربية فنقلوا آثار الغرب إلى العربية ومن أشهرهم الدكتور بيرون الذى كان من الأساتذة المنتدبين للتدريس فى مدرسة الطب ، ترجم إلى العربية المصطلحات الطبية ، ومهما يكن فقد ازدهرت الترجمة فى أواخر القرن التاسع عشر ازدهاراً عظيماً ونقل إلى العربية آثار قيمة فى الصيدلة والطب والإسعاف ، وأمراض الأطفال والأمراض السارية وأمراض العيون ، وترجمت كتب فى الطب البيطرى وكتب الهندسة والجبر والمثلثات وعلم الحركة والميكانيك وعلم الحيوان والنبات وكتب فى التأريخ والسياسة والتراجم واللوائح والتشريعات الخاصة وفى الإدارة والمالية و ... وفى الاحتلال الإنجليزى تضعضعت حركة الترجمة وتحولت الدراسة فى الكلية الطبية من العربية إلى الإنجليزية ، وبذلك فقدت لغتنا العربية المعطاءة مكانتها .

وأسهمت بغداد فى اليقظة الفكرية فى عهد مدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٣) ترعرع هذا المصلح العظيم فى دار الخلافة ، ولما عضّ على قارحة الكمال تلفّت حوله ، فوجد أمة تنوء بالمآسى أنهكتها حروب البلقان ، فوقعت فى فقر مدقع : أيدٍ عاطلة وزراعة سيئة ، وصناعة مفقودة ، وجهل منتشر ، وولايات نائية عن حدود العاصمة لا يعرف عنها شىء ، فوضع مع صحبه دستوراً لم يطبق ، وفى ٣٠ نيسان من (ابريل) لعام ١٨٦٩ عين والياً على بغداد مراً فيها حبل الأمن مضطرباً والقبائل ثائرة تأبى الخضوع للتجنيد وتأبى دفع الضريبة ، فبسط الأمن وجمع الضريبة ووزع الأرض على القبائل وبدأ استيطان القبائل ، ومصر المدن وفتح مدرسة فى كل فضاء وانشأ مطبعة الزوراء ونشر باسمها

(جريدة الزوراء الرسمية) وشكل المجالس البلدية ، معملاً للنسيج كامل الأدوات ومعملاً للسلاح ، وبنى داراً للحكومة ، وبنى داراً للعجزة وبنى المستشفيات وداراً للأيتام ، وأسس مزرعة نموذجية ، وأرسل المهندسين إلى الأرياف للإرشاد الزراعى ، حتى أصبح الناس أن تعيد بغداد عهد الرشيد ، وبسط نفوذ الدولة فى الأحساء وقطر ونجد والخليج العربى ، وفى هذه الاصلاحات المحوطة بالنزاهة المطلقة ازدهرت النهضة الفكرية ، وفى ظلال الأمن أخذت السفن تجرى غدواً ورواحاً فى دجلة والفرات وشط العرب وكادون، وكانت الملاحة بيد شركة إنجليزية فكون مدحت باشا شركة عثمانية شرعت سفنها تمخر عباب الخليج العربى والبحر الأحمر فخزن لها الفحم فى مسقط وعدن وبندر عباس وبوشهر ، ثم نقل مدحت باشا إلى سورية والياً عليها عام ١٨٧٨ فسبقته شهرته وحفل به الناس واستبشروا بالخير على يديه وسار فى سورية فى الاصلاحات مسيرته فى بغداد وأول عمل قام به إنشاء مدرسة للصنائع وأخرى للفنون وأسس ملجأ للأيتام ونشر الأمن والاطمئنان ، وفتح الشوارع وبنى القناطر وسهل المواصلات بين القرى والمدن وبث روح التآخى بين أهل البلاد فأحبوه واحترموه ، وأطلق حرية الفكر ، فنشط الكتاب والمؤلفون ولم يتركه الحاقدون فدسوا عليه عند السلطان وصار لا يقدم مشروعاً يقوم به إلا رفض فاستقال ولم تقبل استقالته فنقل إلى أزمير بلد تركى ، عام ١٨٨٠ .

فى نهضه محمد على باشا فى مصر ومدحت باشا فى العراق وسورية ، انبعثت الحركة الفكرية وانطلق القلم بيد الأدباء والشعراء والمؤلفين فى التشريع والاجتماع وتدوين التأريخ وسائر العلوم والفنون . وفى مفتتح القرن التاسع عشر نشط الاستشراق للاغتراف من ثقافتنا المثقلة بها لغتنا العربية ، فتأسست أول جمعية فى بنافيا عاصمة جاوا عام ١٧٨١ ثم الجمعية الآسيوية البنغالية أسسها السير وليم جونس فى كلكتا ١٧٨٤ ونشرت بحوثها فى عشرين مجلداً ظهرت ما بين ١٧٨٨ ، ١٨٣٦ وأنشأ الفرنسيون الجمعية الآسيوية فى باريس - ١٨٢ برياسة سلفستردى ساس ونشرت مجلة اسمتها الجريدة الأسيوية نشرت بحوثاً قيمة فى تأريخ العرب وبحثت فى الشريعة والمذاهب والنحل وعرفت

الغرب بجغرافية البلاد العربية وأنشأ الإنجليز جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية عامة بزعامة الملك وتتابعت دول الغرب تحذو حذوهم فأنشأ الألمان جمعيتهم عام ١٨٤٤ ومثلهم فعلت أمريكا وروسيا وإيطاليا وبلجيكا وهولاندة والدانمرك وغيرهم . نشر دى ساسى كتاب كليلة ودمنة ومقامات الحريرى ورحلة عبد اللطيف البغدادى وألفية بن مالك وألف كتاباً فى النحو ، وكتاباً فى القراءة جمع فيه منتخبات من آثار العرب فى النثر والنظم ونشر تلميذه كاترمير المتوفى سنة ١٨٣٨ مقدمة ابن خلدون ومنتخبات من أمثال الميدانى، وألف فى آثار البابليين والقبط والسوماريين ، ونشر رينو المتوفى سنة ١٨٦٣ وهو تلميذ دى ساسى ، تقويم البلدان لأبى الفداء مع ترجمة فرنسية وألف بيرون المتوفى عام ١٨٤٨ كتابا فى أصول العربية وترجم المختصر فى فروع المالكية وطبعه أصلاً وترجمة وأنفقت على طبعه وزارة الحرب الفرنسية لأن أهل الجزائر من أتباع مالك .

وأظهر الألمان براعة فائقة فى بحوثهم ودراساتهم عن الشرق الإسلامى عرفت بالدقة والعمق وفى طليعتهم فرايتاغ المتوفى سنة ١٨٦١ ألف كتاباً عن اللغة العربية فى الجاهلية والإسلام ، ومعجماً فى العربية واللاتينية فى أربع مجلدات جمع فيه ما اختاره من الصحاح والقاموس وغيرهما ونشر ديوان الحماسة لأبى تمام مع ترجمة لا تينية وعليها شرح التبريزى وزبدة الطلب فى تأريخ حلب وحكم لقمان وأمثال العرب وأمثال الميدانى مع ترجمتها للاتينية فى ثلاثة مجلدات . ويُعد ويستفيليد من أكثر المستشرقين نشاطاً فى نشر أمجاد العرب يربو ما نشره على مائتى كتاب أهمها سيرة بن هشام ، ووفيات الأعيان لابن خلّكان ، ومعجم البلدان لياقوت ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد . ونشر فلوجل الفهرست لابن النديم ، وطبقات الحنفية وكشف الظنون فى سبع مجلدات مع ترجمتها إلى اللاتينية وألف نولدكه ١٨٣٦ - ١٩٣٠ قواعد اللغة العربية وقواعد السريانية وتقارب اللهجات وتأريخ القرآن وله دراسات قيمة فى المعلقات الخمس . ووضع بروكلمان تأريخ الآداب العربية وهو سجل حافل مع دراسات قيمة . واشتهر غولد تسيهر المجرى اليهودى بالدراسات الإسلامية باللغة الألمانية ، وكان يتعصب لقومه ونشر كتاب

العقائد عن المرجئة والقدرية والمعتزلة . ومن الإنجليز اشتهر بالمر المتوفى ١٨٨٢ أتقن اللغة العربية وقال الشعر فيها ، طبع ديوان زهير أصلاً وترجمة وألف كتباً فى قواعد اللغة العربية ، ومن المستشرقين الإنجليز كارليل كتب فى آداب العرب وكتب كتاب الأبطال ، عقد فيه فصلاً ممتعاً فى سيرة محمد (ص) ونشر جويدى الإيطالى قصيدة بانت سعاد ، وفهرست كتاب الأغانى وكتاب بلاد العرب قبل الإسلام والقى أربعين محاضرة فى الجغرافية والتأريخ وآداب اللغة العربية فى جامعة القاهرة ، ومن مستشرقى هولاندة دى خويه ١٨٣٦ - ١٩٠٩ أشرف على تنظيم المخطوطات الشرقية والتعرف عليها فى مكتبة ليدن ، نسخ وحده جغرافية بن حوقل وقسما من جغرافية الإدريسى ، وطبع غرائب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام ونشر تأريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى ورسالة حى بن يقظان لابن سيناء . أقبل رجال الغرب على هذه الذخيرة القيمة إقبالاً منقطع النظير . أيقظوا الهمم وبعثوا العزائم وفتحوا عيون الغربيين وعيون العرب على ما فى هذه الثروة من مجد عظيم . نقل الغربيون من الأدب العربى إلى اللاتينية ديوان الحماسة وأشعار الهذليين وإلى اللغة الفرنسية دواوين امرىء القيس والنابغة وطرفة بن العبد والخنساء والبردة للبوصيرى وشعر الفرزدق وبعضاً من أشعار المتنبى وأبى العلاء ، ونقل إلى الإنجليزية : المعلقات ولامية العرب وأشعار عنترة ، وديوان البهاء زهير ، وابن خلكان وتأريخ اليمن لعمارة وتأريخ الخلفاء للسيوطى ورحلة ابن بطوطة وابن حوقل ونفح الطيب . ومقامات الحريرى والف ليلة وليلة وكليلة ودمنة . وإلى الألمانية نقل هذان الكتابان واطواق الذهب وكتاب سيبويه . ونقل القرآن الكريم إلى لغات عديدة .

وأقام المستشرقون مؤتمرات كثيرة فى كل مؤتمر تقدم جلائل الأعمال فى التراث العربى . وصفوة القول إن هؤلاء العلماء مهما اختلفت نياتهم وتباينت مقاصدهم قد أفادوا هذا التراث العظيم فائدة كبيرة فحفظوا لنا ما أفلت من يد هولاكو وما نجا من أيدى الصليبيين وما بعدت عنه دودة الأرضة . ولم يكد يطلع القرن التاسع عشر على العالم حتى تكشفت مكتباتهم عن ذخيرة من هذه الأعلاق النفيسة مما قدر بمائتى ألف وخمسين ألف مجلد ومن أجلّ مؤتمراتهم المؤتمر المنعقد فى

استوكهلم عام ١٨٨٩ بدعوة اسكار الثانى ملك الاسوج والنروج الذى اقترح على العلماء المختصين بتأريخ العرب فى الشرق والغرب تأليف كتاب يطرح للمسابقة فى نيل الجائزة وبأن يستوفى هذا الكتاب أحوال العرب قبل الإسلام ويستوعب ما كانوا عليه فى جاهليتهم من العوائد والأحكام وتتبع أحوالهم ، وعلومهم وصنائعهم وأخلاقهم وآثارهم ، . . . وعلى المؤلف أن يستند فى استخراجاته إلى الشعر الجاهلى ، وما تضمنة من الآيات القرآنيه والأحاديث النبوية والتواريخ الصحيحة وقد استجاب لهذا النداء كثير من علماء العرب وعلماء الغرب فلم يحظ أحد بالجائزة الكبرى، وإنما حظى بوسام ذهبى ذى شريط أخضر عَلاَّمةُ العراق والكتاب الكبير السيد محمد شكرى الألسوسى كما حظى بطبع الكتاب على نفقة الدولة صاحبة الاقتراح فظهر كتابه للوجود باسم (الأرب فى أحوال العرب) .

وفى غمرة هذه اليقظة الفكرية وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى اندفعت الأمة العربية فى مصر وسورية والعراق إلى افتتاح المدرسة ووضع الكتاب والمنهج فانتشرت المدارس الابتدائية والثانوية وفتحت المعاهد العالية وأسهمت مصر فى جميع هذه النواحى . واستقدمت الدول العربية الأساتذة من الشرق والغرب وبرز الشعراء والأدباء والكتاب ونشط المؤلفون والدارسون فى نشر الكتب والبحوث وبدأت طلائع الخير فى أفق الأمة العربية وتلاحقت البعوث تترى إلى بلاد الغرب وعادت وفود العلم وفتحت الجامعات والمعاهد الصناعية والفنية والزراعية وشرع يتخرج فيها العلماء والأدباء والقيادات الماهرة ، وتوشجت الثقافة العربية فى بلاد العرب لتعيد سيرتها الأولى فى السير الحثيث كى تواكب الأمم وسوف يأتى اليوم قريباً فتبتعد عن قاموس الأمم النامية فإن فى ماضى أصولنا ثروة أوجدتها عبقرية تكمن فى لغتنا التى هى برهان على مكانتنا فى الوجود ، ويسعدنى أن اختم بحثى بقصة طريفة مر عليها اكثر من سبعة وثلاثين عاماً ، ففى عام ١٩٤٥ كنا ثمانية طلاب نستمع إلى الأستاذ الفاضل الأب (فرتز) بما يلقيه علينا بجامعة بازل فى درس اللغة العبرية ، وبكلمة موجزة وجهها إلى الطلاب يقول : (من أراد أن يطلع على الثقافة الشرقية . فعليه أن يدرس اللغة العربية ، التى جمعت فى معاجمها مفردات

الكلم والمصطلحات لمفاهيم حضارات جاءت قبل التأريخ وبعده ، وإن بينكم « فلان » يشير إليّ ، إنه حفيد أمة كانت تنعم بحضارة زاهرة ، وجهود مبدعة لإسعاد البشرية ، في الوقت الذي كان أسلافكم يغطون في الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء .

ثم قال : إن اللغة العربية لغة عجيبة ، تستند في بناء مفرداتها إلى الثلاثي ، وكل ثلاثة أحرف في مجموعها تكون كلمة ذات معنى يعرب عنها قاموس اللغة ، وكان من بين الطلاب طالب لئيم ، فقال للأستاذ : طيب ! هل يوجد في اللغة العربية ما يدل على هذه الكلمة المكونة من ثلاثة أحرف وهي (W I N) كلمة ألمانية من ثلاثة أحرف تعني النبيذ أو العنب ، ويقابلها بالحروف العربية (وَيْنٌ) ، فالتفت إلى الأستاذ طالباً أن أبحث عن هذه الكلمة . وبرجوعي إلى قاموس الفيروز بادي (ظهرت المعجزة) وإذا أنا أمام أمر عجيب إذ وجدت كلمة (وين) تعني العنب الأسود أو العنب الأبيض .

فقصصت الأمر على الأستاذ ، وقلت له : هذه من معجزات المسيح ، فأرجو ألا تحرجني مرة أخرى ، ففرح الأستاذ فرحاً لا مزيد عليه وفي الدرس الثاني أخبرهم بما حدث وقال : إنني في الخامسة والسبعين من العمر ، مارست دراسة العربية خمسين عاماً ، لم أجد في حياتي متعةً تعدل متعتي في مطالعة الكتب العربية ، إنها لغة تكمن في مفرداتها ومصطلحاتها عقول ناضجة مبدعة ، وتعرب عن حضارة مزدهرة ، استقبلتها بغداد ، فأبدعت بها حضارة عربية إسلامية لها الأثر الكبير في حضارتنا اليوم .

رحم الله شاعر العرب حافظ ابراهيم اذ قال فيها :

رجعتُ لنفسي فاتهمت حَصاتي
وناديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي
رَموني بعقم في الشباب وليتني
عَقمتُ فلم أجزع لقول عِداتي
أنا البحر في أحشائه الدرّ كامن
فهل سألوا الغواصَ عن صدفاتي ؟!

محمد بديع شريف
الخبير بالمجمع

الرقم	بعض المراجع المهمة لهذا البحث
١	الطبرى : طبع اوربا من سنة (١٨٧٩ - ١٩٠١) .
٢	ابن الأثير الكامل : طبع القاهرة (١٣٠٣ هـ) .
٣	ابن خلدون المقدمة : طبع القاهرة وطبع باريس (١٨٥٨) .
٤	ابن القفطى : تأريخ الحكماء طبع اوربا (١٩٠٣) .
٥	المسعودى : طبع باريس (١٨٦١ - ١٨٧٧) .
٦	ابن النديم : الفهرست طبع لايبك (١٨٧١ - ١٨٧٢)
٧	ابن هشام : السيرة طبع اوربا (١٨٥٨ - ١٨٦٠) .
٨	ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور بولاق (١٣١٢ هـ : ١٨٩٤ - ١٨٩٥) .
٩	دكتور أحمد عزت عبد الكريم : بالاشتراك مع الدكتور محمد بديع شريف والدكتور زكى المحامى القاهرة .
١٠	دكتور أحمد عزت عبد الكريم : تأريخ التعليم فى عصر محمد على القاهرة (١٩٣٨).
١١	ابن سعد : طبقات الصحابة طبع اوربا (١٩٠٤) .
١٢	جورجى زيدان : العرب قبل الاسلام دار الهلال بدون تأريخ .
١٣	دكتور فيليب حتى : تآريخ سورية ولبنان وفلسطين : دار الثقافة بيروت (١٩٥٩) .
١٤	ابن تيمية : السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية .
١٥	دكتور عبد العزيز سليمان نوار : مصر والعراق : دراسة فى تأريخ العلاقة بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الأولى القاهرة (١٩٦٨) .
١٦	محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية القاهرة (١٩٣٦) .
١٧	(دكتوراه) محمد بديع شريف : الصراع بين الموالى والعرب : بحث فى حركة الموالى ونتائجها فى الخلافة الشرقية : دار الكتاب العربى القاهرة (١٩٥٤) .
١٨	(دكتوراه) محمد بديع شريف : فى مهبط الوحى دار الفكر القاهرة (١٩٧٩) .
١٩	محمد عبده وجمال الدين الأفغانى : العروة الوثقى ، المكتبة الأهلية بيروت (١٩٣٣).
٢٠	محمد شكرى الألوسى : بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، بغداد (١٣١٤ هـ) .
٢١	نولدكه : المعلقات الخمسة مترجمة ومشروحة (١٨٩٩ - ١٠٩١) .
٢٢	محمد بديع شريف : ديوان اشعار الأمير أبى العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله الخليفة العباسى .
	دراسة وتحقيق دار المعارف القاهرة بدون تأريخ

الرقم	مختار من المراجع الغربية
1	enzyklo paedie des islam leiden 1913 FF
2	A . von cremer, cultur ceschichte des orients unter den chalifen, wien 1875 .
3	Brocke lmann, Cesehichte der arabishen lileratur I 1898, Supplenent dazu 1937 .
4	Coldziher, Abhandlungen Zur arabishen Philologie beid-en 1896 - 1899 .
5	Stuhlmann der Kamf un arabien Berlin 1916 .
6	Wal ther Hinz : Eve nts of Hamvrbi's Reicn , Lecal Life in old elm cambridg Ancient History .
7	Kenon (Kathleen) Amorites and Canaanites London 1966 .
8	Driver (C . R .) Simitie writing from pictograph to Alpha-beth 1948 .
9	King, Egypt and Western AsiA in the Light of Recent dico-riery london 1907 .
10	elay (A . T .) the Empire of the Amorites 1919 .